[illegible]

[illegible]

أبو الحسن الندوي

التفسير السياسي للإسلام

في مرآة كتابات الأستاذ أبي الأعلى المودودي والشهيد سيد قطب

دار آفاق الغد

اهـــداء

اهدي هذا الكتاب الى من يرى أن رضا الله تعالى في الدنيا والآخرة ، والفـــوز بالجنـــة ، والنجاة من النار ، وموافقة الكتاب والسنة ، هي الغاية ، وكل ماعداها — من جهود ومحـــاولات ، وجماعات وقيادات ، ونظم وحكومات — وسائل تخضع للغاية ، وتستخدم لصالح الاسلام ، فيحب المرء لا يحبه الا لله(١) ، وينتصر لحركة او فكرة ، لا ينتصر لهما الا حبا للاسلام .

اهدي هذا الكتاب الى من يؤمن بان النعمة الوحيـــدة التي ختمت بشخصية ، هي نعمة « النبوة » التي ختمت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، اما ســـائر النعم فباقية ســـائرة ، منها نعمة العلم ، ونعمة الفكر ، ونعمة التحقيق ، فلا يحتكرها انسان ، ولا تختم بانسان « وما كان عطاء ربك محظورا » .

اهدي هذا الكتاب الى من يكون على استعداد دائم للانتقال من نافع الى انفع ، ومن صالح الى اصلح : ولقبـــول الحق اذا اتضح ، والدليل اذا قام « فان الحق قديم » كما يقـــول عمـــر بن الخطاب رضي الله عنـــه في منشـــوره للقضـــاء — فالرجوع اليه لا غضاضة فيه ولا بدعة .

---

(١) لفظ ورد في حديث مرفوع متفق عليه

اهدى هذا الكتاب الى من يرى ان حق الملاحظة والنقد ، حق مشاع ، لا يحرمه ذو علم وصاحب فكر ، وان عملية النقـد وابداء الملاحظات ، لا يطبق عليها قانون « اتجاه واحد » .

اهدى هذا الكتاب الى من لايسرع بالحكـم على كتاب حتى يستوعبه فهما وقراءة ، ولا يستقبل بحثا باساءة الظن بنية صاحبه، والشك فى مراميه .

وصدق الله العظيم « فبشر عباد الذين يسـتمعون القول فيتبعون احسـنه ، اولئك الذين هـداهم الله واولئـك هم اولوا الالباب (١) .

ابو الحسن على الحسنى الندوى

---

(١) الزمر ١٨ .

بسم الله الرحمن الرحيم

المدخل فى الموضوع

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم .

أما بعد ، فان الاسلام دين الله الأخير ، الذى يتكفل بهداية البشرية الى يوم يرث الله الأرض ومن عليها ، وعليه تتوقف نجدتها وخلاصها ، وصلاحها وفلاحها ، فلا بد — اذن — أن يبقى الى يوم القيامة ، يوجهها فى دينها ودنياها ، وينير لها الطريق فيما يتصل بأولاها وآخرها ، ومن ثم جاءت عقائده وحقائقه مقررة لا تتغير ، وشرائعه وأحكامه وقوانينه مستوفاة لا تقبل

النسخ والتعديل ، ولم تكن شريعته وحدها منزلة من الله ، بل ان حضارته هي الاخرى تقوم على الحقائق الابدية الخـــالدة . حقيقة لا تحتاج الى التقرير .

ولكن هناك حقيقة اخرى ، هى ان الحياه متحركة منطورة ، مستمرة النمو والتغير ، وذلك من محاسنها، وليس من مساويها، وليس ذلك شذوذا عن الفطرة ، وانما هو اقتضاء الفطرة ، فهى تنتقل من طور الى طور ، ومن لون الى لون ، لانهـــا دائمـــة الشباب والنشاط .

فكل شيء فى الحياة يتغير ، تتغير اللغات واللهجـــات ، وتتغير اساليب البيان والتعبير ، ومنـــاهج البحث والتفكير ، وتتغير الأسباب التى تثير القلق النفسى والاضطراب الداخلى ، وتتغير الوسائل التى تقاوم هذا القلق والاضطراب ، وتتغير اوضـــاع التساؤلات التى تثور فى النفوس البشرية ، كما تتغير اوضـــاع الاجابات عليها .

وتنحصر مسئولية أبناء الاسلام البررة المخلصين ، وانصاره وحماته من العلماء والمصلحين ، القائمين بعرضه والتعبير عنه ، فى هذا الوضـــع المزيج ـــ الذى تشـــكله ابدية الدين وخلوده ، وتطور الحياة ونموها المستمر ـــ فى ان يقوموا (كل فى عصره)

بعملية عرض الاسلام ومحاسنه وتعليماته بأسلوب يقوى ايمان أبناء عصورهم — من جديد — بهذا الدين الخالد، وحقائقه الثابتة، وعقائده الأبدية ، ويعيد الى نفوسهم الثقة بفضلها وحاجة البشرية والمدنية اليها ، وهذا ما أشار اليه سيدنا على — كرم الله وجهه — حينما قال : « كلموا الناس على قدر عقولهم ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله »(١) وهذا ما صنعه متكلمو الاسلام ، والعلماء الربانيون ، فى عصورهم المختلفة ، فقد قاموا بهذه المسئولية الدقيقة حسب الأوضاع والملابسات التى واجهتهم ، جزاهم الله عن الاسلام خير الجزاء .

لكن هذا العمل دقيق وصعب بقدر ما هو واجب وضرورى ، فيجب على الذين يحاولون أن يقوموا بعملية عرض الاسلام وتفهيمه وتقريبه الى القلوب والأذهان ، أن يلازموا الحيطة والدقة — على طول الطريق — فى تحقيق غاياتهم واكمال مهمتهم، حتى لا يتكون ، على غفلة منهم أو عن غير ارادة وقصد لهم ، لدى الجيل الجديد — الذى يراد تعريفه بحقائق الاسلام وترسيخ عقائده فى قلبه أو يقصد استخدامه لاعلاء كلمة الله ، ورفع منار

---

(١) وساق البخارى فى صحيحه قول على رضى الله عنه فى هذا المعنى بما يلى : « حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون ان يكذب الله ورسوله ؟ » ويروى مثل ذلك عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

الاسلام ـــ « ذوق ديني » مختلف عن « الذوق الديني » الذي كان يتسم به الجيل الاسلامي الاول ، بفضل تلقيه التربية في احضان النبوة مباشرة ، ذلك الذي توارثته الاجيال المتلاحقة بعـــده ، وحتى لاينحرف هذا الجيل فيمناهج تفكيره عن الجادة التيرسمتها النبوة على صاحبها الصلاة والسلام ، كما حدث مرات في تاريخ الاديان القديمة والمذاهب والفرق الاسلامية الحديثة ، ان هـذا الحدث لا يتكرر في تاريخ الاديان والمذاهب ، ولكنه اذا حـدث مرة ، لم يكن تداركه وتلافيه ممكنا بأي حيلة من الحيل ، والتاريخ يشهد بذلك . ان هـذا « الذوق الديني » انما ينبع من التـأييد الالهي ، والتوفيق الرباني، والقوة القدسية، التي يكرم بهاالانبياء والرسل ، وهو اقوى قوة ، واعظم ثروة ، وامضى ســلاح ، واغلى تراث ، لدى هذه الامة ، انه سهل افساده ، ولكن لايمكن اصلاحه الا بالتعاليم النبوية الصحيحة ، والتربية الدينية العريقة، وصحبة الربانيين الذين يمثلون السيرة النبوية الاصيلة ولا تملك حكومة مهما كانت قوية وعظيمة ـــ او منظمة سياسية مهمـا كانت غنية وحكيمة ـــ ان تتدارك هـذا الانحراف عن « الذوق الاسلامي » الاصيل .

وظل هذا العمل الدقيق ـــ عمل المرض الجديد للاسلام ـــ يتم عبر التاريخ الاسلامي بطريقة حكيمة لم تحـدث بين الجيـل

To: www.al-mostafa.com

المسلم المعاصر ، وبين العقائد والحقائق ، والقيم والمثل الاسلامية، تلك الفجوة العميقة الواسعة التي وقعت — في تاريخ اليهودية والمسيحية — بين الشباب المثقف الذكي ، وتعاليم العهد العتيق ، والعهد الجديد، مما آثار الشكوك والشبهات الكثيفة في قلبه تجاه تعاليم « الكتاب المقدس » وأدى به الى الثورة عليها ، وضربها عرض الحائط ، وخيم الالحاد واللادينية على العالمين اليهودي والمسيحي ، وبالتالي مني العالم البشري كله بأن يجني ثماره المرة ، ولا يزال .

لكن القائمين بعرض الاسلام وتقديمه في الأسلوب العصري استطاعوا أن يتفادوا من هذه الورطة ، ومن أن يحدث ضعف في صلة هذه الأمة الفكرية والعقلية بحقائق الاسلام الاولية ، وتصوراته الاساسية ، بل ازدادت ايمانا بها ، واذعانا لها ، واقبالا عليها ، وعلى ذلك فلم تمن هذه الأمة بما مني به الهنادك والفرس ، حيث ظلوا قرونا ، ولا يزالون ، يعضون على النقاليد والطقوس ، والاعراف الدينية والاجتماعية بنواجذهم ، بينما يئسوا من التطبيق بين الدين والعقيدة ، وبين العقل والعلم ، ومن جدارة دينهم لمسايرة الحياة البشرية المتطورة . والركب البشري المتقدم ، ورأوا بقاء دينهم في أن يكون على عزلة تامة من العلم والمعرفة ، وأن لا يرتفع عنه ذلك الركام الهائل من الجهل

المطبق والأوهام والاحلام الكثيفة ، الذى تراكم عليه ، وسد عليه منافذ الهواء والنور .

ومن ثم فهؤلاء المخلصون الذين قاموا بهذه المسئوليةالجليلة ، مسئولية العرض الجديد للشريعة الاسلامية عبر العصور الاسلامية ، يستحقون كل تقدير واعتراف وشكر ودعاء ، منا ومن الاجيال المتلاحقة ، حيث تفادوا بهذه الأمة من ان تقع فريسة الصراع بين الدين والعلم ، والحروب الدموية الحمراء ، التى تأججت نارها واشتد اوارها بين المعسكرين المتنافسين — الدينى والعلمى — فى القرون الوسطى فى العالم المسيحى ، مما اضطر العالم الامريكى « درابر » (John William Drapper) أن يضع كتابه الشهير « الصراع بين الدين والعلم » Comfiet Bettwen Religion and Science

وظل هذا الواجب العظيم المبارك المفيد يؤدى عبر التاريخ الاسلامى ، وقيض الله فى كل عصر من المجددين والمصلحين والمتكلمين ومن قام بعرض جديد للاسلام ، وتقديم عصرى لتعاليمه بكل جدارة ومقدرة وتوفيق .

وبجانب ذلك لم يخل عصر من العصور الاسلامية من اولئك العلماء الراسخين فى العلم ، المتذوقين للشريعة الاسلامية ،

المطلعين اطلاعا دقيقا على عقلية الجيل الجديد ، والاتجاهات والملابسات التى يعيشها ، الذين راقبوا هذا العرض الجديد العصرى للاسلام مراقبة أمينة ، حتى لا يواكبه انحراف عن الصراط المستقيم ، وعدول عن الجادة التى وضع عليها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هذه الأمة ، وحتى لايختلف هذا « الذوق الدينى » و « الفهم الدينى » — الذى يكونه هذا التعبير الجديد عن الاسلام — عن « الذوق الدينى » و « الفقه الدينى » الاسلاميين الاصليين اللذين سيظلان « مثاليين » الى يوم القيامة، وابدوا ملاحظاتهم عن هذا العرض الجديد للاسلام فى غير محاباة وتردد ، مع كل تقدير لهذا العمل والاعتراف بقيمته ، ومن غير شك فى نية القائمين بالتجديد والتعبير الجديد ، ووضعوا الاصبع — بكل حرية — على الأخطاء والعثرات ، والتطرف أو المغالاة التى وجدوها قد تطرقت الى هذا العمل الجليل ، وما حال بينهم وبين هذه الحسبة الدقيقة وابداء الملاحظة الصريحة عليه ، شهرة هؤلاء الكتاب والمفكرين العاملين فى مجال التقديم العصرى للاسلام ، ولا مكانتهم فى ما كان يتسم به هؤلاء المفكرون المؤلفون، من زهد وتقوى وورع ، وذلك لأن رائدهم كان مجرد الاخلاص والاحتساب ، فأعربوا عن آرائهم وملاحظاتهم وانطباعاتهم وما كانوا يتخوفونه من وراء ذلك من نتيجة سلبية سيئة ، فى كل اتزان

واقتصاد ، واخلاص وحياد ، غير مدفوعين بنزعة من النزعات .

وقد استقبل هؤلاء المفكرون والمجددون بدورهم هذه « المحاسبة العلمية » والمراقبة الدينية المخلصة — فى أغلب الأحيان — فى سرور وانشراح صدر ، وتلقوها بالقبول والشكر ، وعنوا بها عناية جدية ، واستفادوا منها فى عملهم فجعلوه انفع واجدى ، واعدل واكثر خيرا للأمة المسلمة وللبشرية جمعاء ، وظهور هذين النوعين من العلماء ظل مستمرا ومتصلا منذ فجر التاريخ الاسلامى ، وسيظل الى يوم القيامة ، كما ينبىء به الحديث النبوى الذى رواه البيهقى :

« يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين»(١) .

والواقع ان وجود هاتين الطبقتين ضرورى ، وعلى تعاونهما العلمى المتبادل يتوقف بقاء هذا الدين سليما ، محافظا على اصالته ، ونقائه ، بعيدا عن كل تحريف وعبث ، وافراط وتفريط ، وذلك هو الذى يغذى تطوره الفكرى والعقلى المستمر ، ويجعله صالحا لكل عصر ومصر .

منذ مطلع القرن التاسع عشر المسيحى ظهر فى العالم

---

(١) مشكلة المصابيح ، كتاب العلم ، الفصل الثانى .

الاسلامي ـــ الذي كان يعـــاني التـــدهور الفكري والانحطـــاط السياسي ـــ اضطراب فكري عجيب(١) بفعل نفوذ أوربا السياسي وتقدمها المادي الحثيث ، وغزوها المتتابع ، وانتصاراتها المتواصلة في مجال العلم والعلوم التجريبية ، مما جعل القيـــام بعملية « عرض الاسلام في الأسلوب العصري » فرض كفـــاية ان كان مندوبا قبل ذلك ، فهؤلاء الشباب المثقفون ولا سيما الذين سافروا الى أوربا في أواخر القرن التاســـع عشر او في أوائل القـــرن العشرين ، واحتكوا باهلهـــا ، وأمكنهم أن يختلطوا بالحـــكام الانجليز او المفكرين الغربيين ، قد تزعزعت جـــذور العقـــائد الاسلامية في قلوب كثير منهم بل تنكروا لها واشمأزوا منهـــا ، ووقع منهم عدد كبير فريسة الردة الفكرية والحضارية(٢) .

هنالك نهض في مختلف نواحي العالم الاسلامي كتاب وعلماء حاولوا ان يواجهوا هذا الموقف الحرج ، وتقلدوا مسئولية الدفاع عن الاسلام ، والشريعة الاسلامية ، والحضـــــارة الاسلامية ، وتاريخ الاسلام والمسلمين ، ونظام حكمهم وتعليمهم . وساهموا في

---

(١) اقرأ للاطلاع على مراحل ارتقائه وتطوره في الاقطار الاسلامية كتاب المؤلف « الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية في الاقطـــار الاسلامية » طبع دار القـــلم الكويتية ، الطبعة الثالثة .

(٢) يرجع الى رسالة المؤلف السائرة « ردة ولا أبا بكر لهـــا » .

القيام بهذه الخدمة المشرفة ، فى كل من تركيا ، ومصر ، والشام ، والهند ، كل حسب عقليته وثقافته ، ودراسته وتربيته ، وجدارته ومقدرته ، وعلى الرغم من الاعتراف بقيمة هذه المحاولة وجدواها — فقد انتشلت عددا وجيها من النفوس الصالحة ، من حماة تلك البلبلة الفكرية ، والردة الحضارية التى كانت تهب أعاصيرها الهوجاء فى العالم الاسلامى ، فانها كانت تتسم بالأساليب الدفاعية والاعتذارية ، تبدو كأنها ترمى أولا وقبل كل شىء الى ازالة الفجوة — أو تضييقها على الأقل — بين الحضارة والقيم الاسلامية والحضارة والمثل الغربية ، كما كانت تنم عن تقبل المصطلحات السياسية والاقتصادية الغربية على علاتها أو تطبيقها على التعاليم الاسلامية والتاريخ الاسلامى ، دون تحفظ واحتياط . وربما نجدها تنطوى على تأويل بارد وتفسير غريب للاسلام وتعاليمه . كأنه يهدف تقريب التعاليم الاسلامية الى المقررات الغربية او المفاهيم التى آمن بها الغرب .

ومن ثم حاسب الراسخون فى العلم من العلماء المعاصرين هذه المحاولة — مع الاعتراف بقيمتها الجزئية — محاسبة علمية وأبوا ان تقبل الأمة المسلمة كلها هذا « الفهم الدينى » الذى تنشئه هذه الكتابات ، واخذوا بأيدى جماعة كبيرة من الشباب المسلمين المثقفين — الذين كانوا قد تأثروا بذلك — الى الصراط المستقيم ،

وعلى ذلك فقد سدوا منافذ « التحريف العالمى » ، التى منحتها كتابات هؤلاء الافاضل و « بحوثهم » .

وقد تم اكبر قسط من هذا العمل الذى يمتاز بمتانته وعمقه واعتداله ، فى الهنـــد التى كانت اكبر مسرح للصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية ، بحكم كونها خاضعة خضوعا مباشرا لسيطرة الاستعمار البريطانى ، وقد كانت الطبقة المثقفة المسلمة ، والشعب المسلم الهندى يحمل الشىء الكثير من روح المقـــاومة وقوة التماسك امام الزحف الغربى المعنوى المدمر ، وذلك بفضل وجود مراكز التعليم الدينى والثقافة الاسلامية القوية فى شـــبه القارة الهندية ، وبتأثير العلمـــاء الربانيين ، واصـــحاب القلوب المشرقة الصافية ، والحياة الايمانية الجميلة الجـــذابة ، المؤثرة للاجلة على العـــاجلة ، والتطوع والاحتســـــاب ، على الرواتب والمناصب ، الذين لم تؤثر الحضـــارة الغربية وقيمها ومثلهـــا فى حيـــاتهم وتفكيرهم ، ثروة لم تكن متوفرة فى كثير من البـــلاد الاســـلامية والعربية ، او كانت هذه الروح قد ضعفت فيهـــا واضمحلت من اجل اضمحلال هـــذه العوامل والمؤثرات منـــذ مدة طويلة .

وفى ناحية اخرى ، قد ملأ قلوب الشعب المسلم الهندى

كراهية وسخطا ما واجهه من اخفاق حرب الاستقلال المستميتة فى ١٨٥٧ م التى قادها ضد الحكومة الانجليزية ، والشعب البريطانى الاوربى المسيحى الذى كان يمثل هذه الحضارة وهذه الفكرة ، وهذه الفلسفة للحياة ، وكان يحمل لواءها ويتبنى الدعوة اليها ، وقد انبثقت من هذه الكراهية والسخط حركة الخلافة الجبارة ، وحركة رفض الموالاة مع الانجليز القوية فى الربع الاول من القرن العشرين ، وكل ذلك حال بين الشعب المسلم الهندى وبين انجرافه مع تيار الالحاد والردة الحضارية الذى كان ينطلق ويتدفق بكل قوة من اوربا .

كانت مقاومة المفاهيم والقيم الغربية على قدم وساق تؤدى دورها فى لون خاص ، اذ استرعى الاستاذ الكبير السيد ابوالاعلى المودودى فى منتصف هذا القرن انتباه الطبقة المثقفة من المسلمين بمقالاته القيمة التى كان يكتبها فى مجلته الغراء « ترجمان القرآن » الصادرة من حيدر آباد ـــ الهند ، فى نقد الحضارةالغربية ، ونظام الحياة الغربى ، المقالات التى تتميز بأسلوبها الهجومى ، ونقدها اللاذع لحركة « التقدمية » و « والتجدد » وفكرة « القومية » المتطرفة التى نجمت وباشت وفرخت فى حضن الثقافة الغربية ، وكذلك طرق موضوعات وقضايا فى صميم الشريعة الاسلامية ، والقوانين الاسلامية ، تلك المباحث والقضايا الهامة التى استهدفت

الهجمات « المتجددين » بصفة خاصة ، وسطر قلمه حولها مقالات قوية ، مؤثرة ، معضدة بالدلائل ، امثال الربا ، والحجاب ، والجهاد والاضحية ، والرق ، وحجية الكتاب والسنة ، والاحوال الشخصية وما اليها من المسائل الهامة ، وسيكون من الاجحاف الكبير اذا لم نوف حقه من الاعتراف بما لعبته مقالاته هذه — التى ظهرت فيما بعد فى صورة كتب ورسائل — ومؤلفاته ورسائله المستقلة من دور رائع فى اعادة الثقة الى الطبقة الذكية ، المثقفة بالثقافة الغربية ، بالاسلام وبقيمه وتصوراته ، وفى تخليصها من « مركب النقص » و « نفسية الهزيمة الداخلية » حيال الاسلام وتعاليمه ، مما جعل بعض الكتاب يدعوه « متكلم الاسلام » .

ولكان من حسن حظ الاسلام وسعادة جد المسلمين لو جعل الأستاذ المودودى هذا العمل وحده نصب عينيه وجند له مواهبه الفنية ، ووقف عليه حياته العلمية الخصبة ، ولكنه هب يمارس عملا آخر نستطيع أن نسميه (الصياغة الجديدة للفكر الاسلامى) واعتبره اساسا فكريا لنهضة المسلمين ، ولجمع كلمتهم ، وللجماعة الاسلامية ، ونعنى بذلك بصفة خاصة كتابه المستقل الذى اسماه « المصطلحات الاربعة فى القرآن » الذى فسر فيه تلك المصطلحات القرآنية الاربعة التى يدور عليها الاسلام ،

وتقوم عليه تعاليمه ودعوته ، واليها تستند « اقامه الحكم الاسلامى » أو « اقامة الدين » تفسيرا خاصا يتميز بالطابع السياسى ويدور حول « حاكمية الاله » و « سلطان الرب »يحدد علاقة العبد بربه فى مفهوم خاص وفى حدود معينة وينحصر به عرض نزول القرآن والدعوة الاسلامية فى تأسيس « الحكم الاسلامى » و « اقامة الحكومة الالهية » فحسب .

وكان له موقف خاص هى نتيجة طبيعية منطقية نحو « الوسائل » و « الغايات » والعبادة والذكر ، والأركان الأربعة العملية .

والكتاب الذى بين يدى القارىء محاولة مخلصة ترمى الى الاعراب عن « خواطر » و « خلجات » كانت تساور النفس من مدة طويلة ، وعمل بالوصية النبوية « الدين النصيحة » .

وقد اطلنا هذا العمل سنين طوالا رغم حوافز ملحة كثيرة الى تحقيقها واسئلة كانت تتردد من جهات مختلفة عن الجماعة واسسها الفكرية ، وعن طبيعة الاختلاف لها ، واسبابه ، والكتابة فى هذا الموضوع شائك دقيق ، فله اتصال وثيق بمجموعة حبيبة من الاخوان الكرام ، والزملاء الفضلاء الذين يساهمهم المؤلف فى كثير من مجالات العمل الاسلامى ، والكفاح فى سبيل القضايا

الاسلامية ، واتصال وثيق بالحركة التى لا ينكر فضلها فى ايقاظ الفكر الاسلامى ، واعادة الثقة الى نفوس كثير من الشباب بصلاحية الاسلام ، والقوة الكامنة فيه للقيادة فى هذا العصر ، وكذلك كان المؤلف لا يأمن ان يستغل هذا البحث لبعض مصالح سياسية او حزبية ، او يحمل ذلك على اتجاهات شخصية ، او ردود فعل لا يسلم منها الانسان الا اذا عصمه الله .

واذا كان هذا هو الشأن ، فالحديث فى هذا الموضوع دقيق محرج ، ومثير للتشككات والتساؤلات الكثيرة ، وقد سهل على الناس الاسترسال اليها والتوسع فيها ، وصعب عليهم حسن الظن بصاحبه والتماس العذر له ، وقد طال العهد بالنقد البرىء النزيه، المجرد من الاغراض السياسية والدوافع الشخصية، الذى لم يكن يبتغى به الا وجه الله ، وحب هذا الدين الذى هو مصدر كل خير وسعادة ، وعزة وقوة ، وايثاره على الأشخاص والجماعات ، والرئاسات والقيادات ، وعلى اصحاب المواقف المحمودة ، والمآثر الجليلة فى الدعوة والتربية ، والجهاد والبطولات ، كما كان شأن ائمة الجرح والتعديل من المحدثين ، فى امر كبار الصالحين ، والزهاد والمتقنين ، وائمة فن التزكية والتربية وامراء الجيوش الاسلامية ، وقادة الفتح ، وخلفاء

المسلمين(١) .

وقد اضاف الى هذه المشكلة أن منهج المؤلف الذى التزمه فى تاليفه كان منهجا علميا يتسم بالايجابية والهدوء ، والابتعاد عن المسائل الخلافية والمناقشات اللفظية ، واذا كان لابد من ذلك تعرض له جانبيا(٢) ، ثم عاد الى خطه الاول من الحديث فى المبادىء والأسس ، والاهداف والغايات ، ولم يكن من السهل عليه ، والمرغوب له ، العدول عن هذا المنهج الذى آثره لنفسه وحافظ عليه طوال حياته(٣) .

ولم يقدم المؤلف الى هذا البحث الا حين عرف وعاشر كثيرا من الذين تخرجوا فى المدرسة الفكرية التى تقوم على كتابات الأستاذ المودودى وحدها ، وتعتمد على فهمه للدين ، وتفسيره له ، ورضعوا بلبانها ، ونشأوا فى احضانها ، لا يدينون فى ثقافتهم الدينية وفهمهم لحقيقة الدين لمدرسة دينية اخرى — بمعنى المدرسة الواسع — او لمكتبة اسلامية اخرى — بمعنى المكتبة

---

(١) يرى القارىء نماذج رائعة من هذا النقد الصريح الأمين فى كتب الجرح والتعديل مثل «كتاب المجروحين» لابن حبان، «وميزان الاعتدال » للذهبى ، ومقدمة صحيح مسلم .

(٢) كما فعل فى كتاب «النبوة والأنبياء فى ضوء القرآن» .

(٣) يستثنى من ذلك كتابه « القاديانى والقاديانية » وهو الكتاب الوحيد الذى الفه فى الرد على طائفة مارقة تدعى الاسلام .

الواسع — واذا كان لهما نصيب فى عقليتهم وثقافتهم الدينية ، فهو نصيب ضئيل سطحى ، وأفزعته اتجاهات فكرية ، ومفهوم وتفسيرات للدين بدت طلائعها فى الحديث والكتابة ، والفكر والتأليف ، والعمل والتطبيق ، وخاف أن تنشأ طبقة أو مجتمع فيه عدد كبير من الشباب الأذكياء المثقفين ، والعاملين لمجد الاسلام المخلصين ، من أصحاب الهمة العالية ، والنظر البعيد ، والايثار وروح التضحية ، فى خدمة الاسلام والمسلمين ، على منهج يختلف عن المنهج الاسلامى الأول فى الروح والدوافع ، والنفسية والعقلية، والأهداف والغايات ، والمثل والقيم ، ويضعف ما جاهد له الرسول وأصحابه ، من اخلاص الدين لله ، والعمل للآخرة ، وروح «الايمان والاحتساب»(١) المسيطرة على الحياة كلها ، السارية فى الأعمال والتصرفات بأسرها ، ويتحول هذا الكفاح

---

(١) تشترط الأحاديث الصحيحة الكثيرة « الايمان والاحتساب » لوقوع الأعمال الصالحة — حتى الفرائض والواجبات — موقع القبول عند الله ، واستحقاق الفاعل للثواب والأجر عليها ، جاء فى صحيح البخارى « من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » « ومن قام ليلة القدر ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » ، وجاء بيان « الايمان والاحتساب » فى رواية للبخارى كما يلى : « رجاء ثوابها وتصدق موعودها » وتلك هى روح الأعمال ، والقوة التى تحرك الأمة للعمل ، والاحتفاظ بهذه الروح الى يوم القيامة مسئولية عظيمة على عاتق الدعاة والمصلحين فى هذه الأمة .

الى مجرد عملية تنظيم جماعى ، أو محاولة الحصول على الحكم والسلطان للمسلمين ، وقد يكون تحولا لا رجعة بعده الى الأصل والمصدر ، كمـــا جرب ذلك مرارا فى تاريخ الاديان والفرق ، والدعوات والحركات ، فأقبلنا ـــ مضطرين علم الله ـــ على التنبيه على هذا الخطر ـــ ولو كان غامضا او بعيدا ـــ فالحب يبعث على الاشفاق ، والنصح يدفع الى الانذار .

والمؤلف يحمد الله على انه وفقه لتاليف هذا الكتاب فى حياة الأستاذ المودودى ، فقد وضعه فى رمضان ١٣٩٨ هـ (اغسطس ١٩٧٨ م) ، وصدر من المطبعة فى المحـــرم ١٣٩٩ هـ (ديســمبر ١٩٧٨ م) ، وبادرت بارسال نسخة منه مع رسالة شخصية رقيقة اليه اعتذر فيها عن هذا النقد العلمى الذى كان رائده الاخلاص والاشفاق ، والنصيحة لله ولرســـوله ولدينه ، وابداء بعض الملاحظات عن بعض تحقيقاته وتعبيراته ، وقد ظل البرقان على صلات ودية ، وحسن ظن كل واحد بصاحبه ، واعتراف وتقدير ، وجـــاءنى رد لائـــق بمقـــامه العـــلمى والدعـــوى ، وحســـن تلقيـــه للبحـــوث العلميـــة ، كتبهـــا فى ٢٣ مـــن يناير ١٩٧٩ م من لاهور ، يشكر فيهـا على هذه الملاحظات ويدعو المؤلف الى مراجعة سائر كتاباته ومؤلفاته ، وابداء مايتخوف منه على الفكرة الدينية الصحيحة ، ويقول : « اننى لا اســتطيع ان

اقول انى سأوافق عليها تماما ، ولكنى سـأتأمل فيها ، واننى لا اعتبر نفسى فوق مستوى النقد ، واختلاف وجهات النظر » ، وظهرت للكتاب طبعة فى باكستان اطلع عليها اعضاء الجماعة الاسلامية ، وتناول الكتاب المجلات والصحف الباكستانية ـ بما فيها المجلات والصحف التى تعتبر لسان حال الجماعة ـ بالنقد والتقريظ وعلقت عليه ، كما تحدثت عن الطبعة الهندية الصحف والمجلات الاسلامية التى تصدر فى الهند ، وبعض مجلات الجماعة وصحفها .

وفوجىء العالم الاسلامى وفجع بوفاة هذا المفكر الاسلامى الكبير فى ٢٢ من سبتمبر ١٩٧٩ م ، وفوجىء المؤلف بالنبأ وهو فى دلهى فى حفلة المجلس الاستشارى للجماعات والقيادات الاسلامية فى الهند ، وشاء الله ان يكون بجوار زملائه واصدقائه اعضاءالجماعةالاسلامية الهندية،وهم من انشط اعضاء هذا المجلس الاستشارى العاملين ـ صباح يوم الاحد غرة ذى القعدة ١٣٩٩ هـ (٢٣ من سبتمبر ١٩٧٩ م) ويلقى كلمة عزاء وتأبين فى احدى حفلات هذا المجلس التى مثلت فيها كل المنظمات الاسلامية السياسية وحضرتها شخصيات الشعب الاسلامى البارزة ، بمناسبة معركة الانتخابات القادمة للبرلمان الهندى ، ويدلى بحديث ضاف على اثر عودته من العاصمة الى مقر عمله ، عن الراحل العظيم ، لندوب المعهد العالى للدعوة والفكر الاسلامى

ندوة العلماء ـــ لكهنئو(١) ، وفى تفصيل اكثر لمندوب صحيفة ندوة العلماء الاردية « تعمير حياة » ، يذكر فيه صلته بالمرحوم الاستاذ المودودى التى يرجع تاريخها الى الثلاثينات الاولى من هذا القرن المسيحى ، ومساهمته اياه فى الدعوة والفكر ، مع مقتطفات من رسائله ، تلقى ضوءا على ما كان بينهمـــا من صـــداقة وثقـــة وتقـــدير .

والمؤلف الآن يحمد الله على انه لم يضطر الى نشر هـــذه الملاحظات النقدية على اثر وفاة الاستاذ المودودى ، وان كان الحق حقيقا بأن يقال فى الحياة وبعد الممات ، وقد جرى على ذلك كثير من علماء الاسلام ، فابدوا آراءهم الحرة وملاحظاتهم الجريئة عن كبار الراحلين بعد وفاتهم ، ولم يشعروا فى ذلك بحرج او اساءة الى الراحلين ، والحق اولى من الرجـــال ، ولكن ابداء ما يريب ويحيك فى الصدر فى حياة من يتصل به هذا التعليق او النقـــد ، اولى واجمل ، وايسر واسهل ، من ابداءه ، بعد وفاته بأيام وشـــهور ، والله المسئول ان يجزل له مثوبة الدعاة والمجاهدين ، ويغفر لـــه الزلات التى لا يخلو عنها المتحرون للحق من الكتاب والمفكرين ، والعلماء والمؤلفين .

---

(١) وقد ظهر هذا الحديث فى صحف الندوة العربية وبعض المجلات فى العالم العربى .

ونرجو أن اخواننا الذين ينتمون الى « الجماعة الاسلامية » سيكونون فى مقدمة من يرحب بهذا الكتاب . ويقرأوه قراءة جـد وامعان ، ولا يسارعون الى اتهام هـذا العمل بعصبية حزبية ، أو بنزعة شخصية ، او ارضاء حاجة ذاتية، ولا يرون فيه معارضة للحركة الاسلامية ، او محاولة اقامة الحكم الاسـلامى الذى بدت تباشيره ساطعة فى الأفق ، ويجب أن يستبشر به كل من يحب هذا الدين ، ويسعى لمجد هذه الأمة ويعمل لانهـاض الاسـلام والمسلمين .

والذين يحاولون ان يخـدموا الدين بكل جـد واخـلاص ، ولا يريدون الا اعلاء كلمة الله ورفع شأن الاسلام ، وينشـدون الحق والصواب ، ويحرصـون على تصحيح « الفهم الدينى » وتصـعيده واكماله ، والحق هو المقياس الوحيـد لديهم ـ اولا واخيرا ـ لا جماعة من الجماعات ـ مهما كان وثيق الصلة بها ـ ولا فرد من الأفراد ـ مهما كان عظيما عنده ـ فانهم دائما يتلقون النقد الايجابى البناء ، والآراء والتوجيهات المخلصة مهما خالفت آراءهم ، بصدر رحب ، وقلب منشرح .

وكانت هذه الحسبة العلمية المخلصة النزيهة ، فى طليعـة العوامل التى صانت الأمة المسلمة عن الانحراف عن الجـادة ، والتحريف للدين والشذوذ الجماعى ، والعثرة المردية ، فى تاريخها

الطويل ، ورحلتها الشاقة الشاسعة في ميادين الاجتهاد ، والتجربة ، والاستنباط والاستنتاج ، واجهاد الفكر والرأى ، ويرجع اليها الفضل في تلقيح الأفكار ، وتنقيح الأنظار ، وتوسع المكتبة الاسلامية الفقهية التوسع الذى لا نظير لـه في تاريخ الديانات والثقافات ، ودفع الحرج عن الأمة ، وانارة السبيل للسالكين ، وحفظ القادة والزعماء ، والمفكرين والعلماء عن الافتيات في الرأى ، والاعجاب بالنفس وادعائهم أو ادعاء اتباعهم العصمة لهم ، وحفظ الأمة عن ان تقع فريسة لغلو او تطرف او شذوذ أو عثرة .

وقد فقدت هذه الحسبة ـ العلمية الدينية ـ او ضعفت ضعفا كبيرا في ديانات اخرى ، خصوصا في المسيحية ، فكانت فريسة تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، ونشأت اجمات كثيفة ، وغابات مخيفة ، على أديم هذه الديانات توارت عنها اصالتها وتعاليمها الأولى ، ولذلك شددت الشريعة الغراء على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والقيام بهما في كل زمان ومكان ، وحذرت من التواني فيهما والمحاباة لأهل الوجاهة والسلطان ، وجعلت « كلمة حق عند سلطان جائر » افضل الجهاد ، وقام به المسلمون ، وخصوصا علماؤهم بهذه الفريضة في كل زمن فاسد وحكم جائر ، وسمح لـه أمير

المؤمنين عمر لكل ضعيف ومغمور ورحب به ، فقال : « لا خير فيهم اذ لم يقولوها لنا ، ولا خير فينا اذ لم نقبل»(١) وقال مرة : « امراة اصابت ورجل اخطأ »(٢) .

ولا يمنع من هذا التنبيه على خطأ او زلة ، والارشاد الى الانفع الاصلح ، او الاقوم الاسلم ، تبوء من تعرض لهذا الخطأ الاجتهادى او السهو والنسيان اللذين هما من خصائص الانسان مكان قيادة ، أو اشتغاله بمصلحة اجتماعية للأمة ، او سلامة نية ، او غناؤه فى كفاح او نضال ، فقد كان الصحابة رضى الله عنهم ينبهون افضل الرسل وخير البشر صلى الله عليه وسلم على السهو ، وقد قال ذو اليدين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صلى الرباعية اثنتين : اقصرت الصلاة ام نسيت يارسول الله ؟ (٣) وعزل امير المؤمنين عمر — وهو اعرف المسلمين بمصالح

---

(١) كتاب الخراج للامام ابى يوسف ص ٧ .

(٢) اخرج عبد الرازق عن عمر أنه قال « لا تغالوا فى مهر النساء : فقالت امراة : ليس ذلك لك يا عمر ان الله تعالى يقول (وآتيتم احداهن قنطارا) فقال عمر : امراة خاصمت عمر فخصمته » واخرجه الزبير ابن بكار بلفظ « امراة اصابت ورجل اخطأ » (راجع نيل الأوطار ج ٦ ص ١٧٠) .

(٣) روى الترمذى فى الجامع الصحيح باسناد عن أبى هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم انصرف من اثنين ، فقال ذو اليدين اقصرت الصلاة ام نسيت يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أصدق ذو اليدين ؟ ، فقال الناس نعم . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتين الاخريين ثم سلم ، ثم كبر فسجد مثل سجوده أو اطول ، ثم كبر فرفع فسجد مثل سجوده او اطول ، سنن الترمذى ابواب الصلاة ، والحديث فى الصحيحين والموطا .

الاسلام والمسلمين ـــ سيدنا خـالدا فى معركة اليرموك ، وهى المعركة الحاسمة المصيرية فى تاريخ الاسلام ، ونصب ابا عبيدة مكانه ، ولو اخذ المسلمون فى ماضيهم عدم اهداث التشويش فى صفوف المسلمين بعين الاعتبار وكفوا من التنبيه على الزلل والخطأ ، لانقطع هذا التيـــار الحيوى المبـــارك من حركة الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والحسبة فى الدين ، والشهادة بالحق ، عن جهاز الأمة الاجتمـــاعى والخلقى ، ووقف التلب عن توزيع الدم الصحيح الى الشرائين والعروق ، وكان ما يعقب ذلك من التباس الأمور على اهل العلم والراى ، وانجراف العـــامة للتيارات ، واختفاء كثير من حقـــائق الدين ، اعظم واجل من اعتراف هـــذا القائد او الامـــام او العبقرى بخطئه فى التعبير ، أو تقصيره فى الفهم او التفهيم ، فان العصمة لله وحده ، وكل يؤخذ من قوله ويرد الا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

اما « الجماعة الاسلامية » فهى اولى بالعمل بهذا المبـــدأ فدستورها الاساسى ينص على ذلك فيقول :

« لا يعتبرن ـــ احد ـــ احدا معيارا للحق ، الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يظنه اعلى من ان يناله احد بالنقد او يجد فيه ماخذا ، ولا يسوغ لاحد ان يخضع لآخر عقليا وفكريا ، بل يجب

عليه ان يقيس كل انسان بهذا المقياس الالهى الكامل ، ويضعه بعد القياس والوزن فى مكانه الذى يستحقه»(١) .

ونحن نستبعد جدا من الجماعة التى كان منطلقها من النقد الجرىء الشامل لكل العصور الاسلامية ، والطبقات الاسلامية ، وتقييم الحركات والجهود تقييما حرا بعيدا عن كل عصبية جماعية واحكام تقليدية ، ان يكون عند اعضائها فى الداخل او اصدقائها فى الخارج ، تعظيم يبلغ حد التقديس لمؤسسها والداعى اليها ، وان تكون عندهم حساسية زائدة فى كل ما يوجه له من نقد او ملاحظات او مآخذ(٢) .

وقد ضرب الاستاذ ابو الاعلى المودودى لذلك مثلا عمليا حينما وضع كتابه « التجديد واحياء الدين » (باللغة الاردية) الذى تناول فيه مآثر عدد من كبار رجال التجديد والاصلاح فى تاريخ الاسلام بالنقد والتحليل ، ولم يحل بينه وبين ان يبدى

---

(١) دستور الجماعة الاسلامية الهندية — معدلا — طبع المكتبة الاسلامية المركزية .

(٢) كانت مفاجأة حقا للمؤلف حين تلقى رسائل حانقة تنبىء عن استياء شديد ، ونقد لاذع من عدد من المنتمين الى الجماعة فى الهند على اثر صدور الطبعة الاردية لانه كان يتوقع منهم ان يكونوا اوسع صدرا ، واكثر احتمالا من غيرهم من غلاة المنتسبين الى جماعات اخرى ، وانهم يميزون بين الخلاف الشخصى الحاقد والاختلاف المبدئى الهادف .

آراءه وانطباعاته نحو هؤلاء الاعلام ، عظمتهم وشهرتهم ، وعلو مكانتهم عند الناس .

وهذا الكتاب الذى هو بين يدى القارىء الكريم ، محاولة متواضعة فى هذا الاتجاه الذى سار فيه الأستاذ ابو الأعلى ، ومعذرة ، فلا يطبق قانون « اتجاه واحد » (One way Traffic) الذى يعمل به فى تنظيم حركة المرور ، على النقد العلمى ، والبحث عن الأصلح الأنفع ، وعرض حصيلة الدراسات ، وعصارة التفكير ، ولو طبق هذا القانون على عالم التفكير والتاليف لشل الذهن الانسانى ، وتعطلت الحركة العلمية ، ووقف سير الاصلاح والتجديد ، والموافاة بالمنيد الجديد ، الى الأبد التى هى كشجرة طيبة اصلها ثابت ، وفرعها فى السماء تؤتى اكلها كل حين باذن ربها .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

ابو الحسن على الحسنى الندوى

١٣ من ذى القعدة الحرام ١٣٩٩ هـ

٩ اكتوبر سنة ١٩٧٩ م

راىء بريلى ، (الهند)

بسم الله الرحمن الرحيم

هل بقيت المصطلحات الأربعة القرآنية مجهولة مغمورة عبر قرون متطاولة ، وغابت عن الناس روح الاسلام الحقيقية ؟

يحاول المؤلف الشهير والمفكر الاسلامى المعاصر الاستاذ ابو الاعلى المودودى مؤسس « الجماعة الاسلامية » فى كتابه المعروف « المصطلحات الاربعة فى القرآن » أن يؤكد — وهو يتحدث عن كلمات : « الاله » و « الرب » و « الدين » و « العبادة » — ان هذه الكلمات القرآنية والمصطلحات الاسلامية الاساسية ، كان يفهمها جيدا كل من كان يخاطبه القرآن لدى نزوله ويدرك اغوار معانيها الاصيلة ، لان القرآن عربى وكان المخاطب عربيا ، يقول :

« لما نزل القرآن فى العرب وعرض على الناطقين بالضاد » كان حينئذ يعرف كل امرىء منهم ما معنى « الاله » وما المراد

بـــ « الرب » لأن كلمتى « الاله » و « الرب » كانتا مستعملتين فى كلامهم منذ ذى قبل ، وكانوا يحيطـــون علما بجميـــع المعانى التى تطلقان عليها ، ومن ثم اذا قيل لهم : لا الـــه الا الله ولا رب سواه ولا شريك له فى الوهيته وربوبيته ، ادركوا ما دعوا اليه تماما ، وتبين لهم من غير ما لبس ولا ابهام اى شىء هو الذى قد نفاه القائل ومنع غير الله أن يوصف به ، واى شىء قـــد خصـــه واخلصه لله تعالى ، فالذين كفروا انما كفروا عن بينة ومعرفة بكل ما يبطله وينعى عليه كفره بألوهية غير الله وربوبيته ، وكذلك من آمن فقد آمن عن بينة وبصيرة بكل ما يوجب قبول تلك العقيـــدة الاخذ به او الانسلاخ عنه .

« وكذلك كانت كلمتا « العبادة » و « الدين » شائعتين فى لغتهم وكانوا يعلمون ما العبد ، وما الحـــال التى يعبر عنهـــا بالعبودية ، وما هو المنهاج العمـــلى الذى يطلق عليـــــه اسم « العبـــادة » وما مغزى « الدين » وما هى المعانى التى تشـــتمل عليه هذه الكلمة ؟ ومن ثم لما قيل لهم : « ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » وادخلوا فى دين الله منقطعين عن الاديان كلهـــــا ما اخطأوا فى فهم هذه الدعوة التى جاء بهـــا القرآن . وما ان قرعت كلماتها اسماعهم حتى تبينوا : اى نوع من التغيير فى نظام

حياتهم جاءت تطالبهم به تلك الدعوة ؟ »(١) .

لكن الحال لم يعد على هذا المنوال ، بل غابت عن الناس وخفيت عليهم هذه الحقائق المشرقة ، وتراكم على المصطلحات الأربعة فى القرآن — التى هى فى منزلة المبادىء الأولية لدى الاسلام — غبار كثيف من الجهل والعجمة ، والغفلة والاهمال ، وكان ذلك على اثر انقراض عهد النبوة ، والجيل الذى أدرك العصر الجاهلى ونشأ فى الاسلام ، يقول الاستاذ الفاضل فى السطور الآتية :

« ولكنه فى القرون التى تلت ذلك العصر الزاهر ، جعلت تتبدل المعانى الأصلية الصحيحة لجميع تلك الكلمات ، تلك المعانى التى كانت شائعة بين القوم عصر نزول القرآن ، حتى أخذت تضيق كل كلمة من تلكم الكلمات الأربع عما كانت تتسع له وتحيط به من قبل ، وعادت منحصرة فى معان ضيقة محدودة ومخصوصة بمدلولات غامضة مستبهمة ، وذلك لسببين اثنين :

« الأول : قلة الذوق العربى السليم ونضوب معين العربية الخالصة فى العصور المتأخرة ، والثانى : ان الذين ولدوا فى

---

(١) « المصطلحات الأربعة فى القرآن » ص ٨ — ٩ الطبعة الرابعة طبع « الدار الكويتية » .

المجتمع الاسلامى ونشأوا فيه ، لم يكن قد بقى لهم من معانى كلمات « الاله » و « الرب » و « العبادة » و « الدين » ما كان شائعا فى المجتمع الجاهلى وقت نزول القرآن . ولأجل هذين السببين أصبح اللغويون والمفسرون فى العصور المتأخرة يشرحون اكثر كلمات القرآن فى معاجم اللغة وكتب التفسير بالمعانى التى فهمها المتأخرون من المسلمين بدلا من معانيها اللغوية الأصلية ، ودونك من ذلك أمثلة :

« ان كلمة « الاله » جعلوها كأنها مترادفة مع كلمة الأصنام والأوثان ، وكلمة « الرب » جعلوها مترادفة مع الذى يربى وينشىء ، وللذات القائمة بأمر تربية الخلق وتنشئتهم . وكلمة « العبادة » حدودها فى معانى التأله والتنسك والخضوع والصلاة بين يدى الله . وكلمة « الدين » جعلوها نظيرا لكلمة النحلة (Religion) وكلمة « الطاغوت » فسروها بالصنم أو الشيطان (١) » .

ثم يقول وهو يتحدث عن نتائج هذا التغير فى الفهم والادراك :

« فمن الحق الذى لا مراء فيه انه قد خفى على الناس

---

(١) المصدر نفسه ص ١٠٩ .

معظم تعاليم القرآن ، بل وغابت عنهم روحه السامية وفكرته المركزية ، لمجرد ما غشى هذه المصطلحات الأربعة الاساسية من حجب الجهل ، وذلك من اكبر الأسباب التى قد تطرق لأجلها الوهن والضعف الى عقائدهم واعمالهم على رغم قبولهم دين الاسلام وكونهم فى عداد المسلمين» (١) .

صلاحية الأمة للأخذ والتلقى والفهم ، ومزية القرآن فى الابانة والوضوح والافادة .

ولا يبعد أن يفهم منه القارىء الذى لم يتعمق فى العلم ، ولم يقو ايمانه بحفظ هذا الكتاب الخالد — بجميع معانى الكلمة — وصيانة هذه الأمة عن الضلال العام ، والجهالة المطبقة المخيمة على الأمة عبر المسافات الزمانية والمكانية ، أن القرآن قد بقى هذه المدة الطويلة ملتبسا على الأمة أو — فى تعبير متحفظ — على اكثر افرادها ، ومضت على ذلك قرون واجيال ولم تتبين الأمة حقيقة الكلمات التى يدور عليها هذا الكتاب ، وتقوم عليها تعاليمه ودعوته ، الا فى العصر الأخير حين قيض الله لفهمها ورفع اللثام عنها بعض الكتاب الاسلاميين .

---

(١) نفس المصدر ، ص ٩ — ١٠ .

وهـذا الفهم وان بدا امرا غير ذى خطـر ، ولكنه عميق الجذور بعيد المواقب فى التفكير الاسـلامى ، لانه يشـكك فى صلاحية هذه الامة ومركزها القيادى والدعوى ، وفى فهم هـذه الامة لهذا الكتاب والعمـل به فى تاريخها الطويـل ، ويقلل من قيمة مآثر المجددين والمصلحين والمجتهدين العلمية والعملية ، فان الكتاب الذى لم يفهم حق الفهم فى اطول مدة واخصبها عملا وعلما وكفاحا ، يشك فى ابانته ووضـوحه وافادته ، ويشـك فى كل ما يقال عنه ويفسر به فى هذا العصر وبعده ، وذلك يفتح البـاب للتوسع فى تأويله على مصراعيه — كما فعلت الباطنية فى مختلف اشكالها — ويشجع المحاولات التى ترمى الى تحويل الحـقائق الدينية الى لغز مستعص على الفهم والادراك .

الصلة بين الكلمات والمعـانى :

وقـد يعجز كثير من القراء الكرام الذين لا يتمتعون بنظرة عميقة فى التاريخ ، تاريخ المذاهب والفرق ، عن اساغة هـذا الاجمال ، فنرى من المنـاسب ان نثبت هنا ما قلنـاه عن هـذه «الاستراتيجية» الدقيقة التى استخدمتها الباطنية ، فى الجزء الاول من كتابنا « رجال الفكر والدعوة فى الاسلام » :

« انهم لاحظوا ان اصول الديانة الاسـلامية وعقـائدها

واحكامها ومسائلها ، انما عرضت في أطر الفاظ وكلمات تدل عليها وتعبر عنها وكان لابد من ذلك عند كل رسالة جديدة ، والله يقول : « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » (١) وقد تعينت معاني هذه الكلمات ومفاهيمها ، وتواتر ذلك عمليا ولفظيا في الامة وعرفته الامة الاسلامية ودانت به ، فكل من كلمات « النبوءة » و « الرسالة » و « الملائكة » و « المعاد » و « الجنة » و « النار » و « الشريعة » و « الفرض » و « الواجب » و « الحلال » و « الحرام » و « الصلاة » و « الزكاة » و « الصوم » و « الحج » يؤدى معنى خاصا ، وتفهم منها مفاهيم خاصة لايشك فيها مسلم ، ولا يختلف فيها اثنان ، وكما أن هذه الحقائق الدينية — التي تعبر عنها هذه الكلمات — ظلت محفوظة في الامة تتوارثها الاجيال ، وتنتقل مع الزمان ، كذلك هذه الكلمات ثروة محفوظة لم تعبث بها يد التحريف ، وقد اصبح كل منها لازما وملزوما لصاحبه ، فاذا اطلقت كلمة « الصلاة » — مثلا — انتقل الذهن الى هيئة عبادة خاصة ، فيها قيام وركوع وسجود وقراءة وتسليم ، الى غير ذلك مما يدخل في اركان « الصلاة » واجزائها واوضاعها ، وكذلك اذا اطلقت كلمة «النبوءة»

---

(١) سورة ابراهيم : ٤

أو « المعاد » تعين منهما ذلك المفهوم الاسلامي الذى يفهمه المسلمون ويدينون به .

لقد أدرك « الباطنية » بذكائهم ، ان هذه الصلة القائمة بين الكلمات والمصطلحات الدينية ومعانيها ، أساس تقوم عليه الحياة الاسلامية ، والهيكل الفكرى والعملى فى حياة المسلمين ، ولهذه الصلة تدين الوحدة الدينية والفكرية التى يمتاز بها المسلمون ، وعن طريق هذه الصلة يتصل المسلمون بماضيهم وبمنابعهم الصافية ، فاذا انقطعت هذه الصلة — بين الكلمات والمعانى — وأصبحت الكلمات لا تدل على معنى خاص ومفهوم معين ، أو تسرب الشك والاختلاف اليها ، أصبحت هذه الأمة فريسة لكل دعوة وفلسفة ، وساغ لكل أحد أن يقول ما يشاء ، ويروج على كثير من العامة واشباه العامة بل الخاصة ، وعمت الفوضى العقلية والدينية ، وذلك ما يريدون ، ومنه يدخلون »(١) .

المزايا الاساسية للقرآن :

ثم ان هذه الفكرة تخالف الحقيقة العلمية ، والعقيدة الدينية ، وهى أن هذه الأمة لم تتلق الدين فى صورة الكتاب فحسب ،

---

(١) رجال الفكر والدعوة فى الاسلام الجزء الأول ، ص ١٦٦ — ١٦٧ — ١٦٨ الطبعة الثانية . طبع « دار القلم » الكويت .

To: www.al-mostafa.com

بل ظلت تنتقل الكلمات والمعانى والمفاهيم من جيـــل الى جيل ، وظلت تتوارثها الاجيال ، حتى التطبيق العملى أيضا .. فضلا عن أنه ينافى وصف الله تعالى لهذا الكتاب بالابانة والوضوح فى غير ما موضع من القرآن :

جاء فى مستهل سورة يوسف :

« الر ، تلك آيات الكتاب المبين ، انا انزلناه قرآنا عربيـــا لعلكم تعقلون »(١) .

وفى مطلع سورة الحجر :

« الر ، تلك آيات الكتاب وقرآن مبين »(٢) .

وفى مفتتح سورة النمل :

« طس ، تلك آيات القرآن وكتاب مبين »(٣) .

وفى الآية الأولى من سورة الشعراء :

« طسم ، تلك آيات الكتاب المبين »(٤) .

وتتحدث سورة الشعراء عن صلاحية الابانة والتفهيم التى يفيض بها الوحى ـــ الذى نزل به الروح الأمين : جبرئيل ، على قلب النبى صلى الله عليه وسلم ـــ فتقول :

« وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الـــروح الأمين عـــلى

---

(١) سورة يوسف : ١ ـــ ٢ (٢) سورة الحجر : ١
(٣) سورة النمل : ١ (٤) سورة الشعراء : ١ ـــ ٢

قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين »(١) .

وتبتدىء سورة حم بالكلمات الآتية :

« حم والكتاب المبين »(٢) .

وهل يسوغ لعاقل أن يعتقد ان ذلك الكتاب — الذى نص القرآن مرارا وتكرارا وفى قوة وشدة والحاح ، على ابانته ووضوحه وكونه سهلا سائغا للفهم — عجز عن تفهيم مصطلحاته الأربعة — التى يدور حولها نظامه الاعتقادى والعملى والدعوى — وتقريب معانيها الحقيقية ومفاهيمها الأصلية الى العقول والأذهان ؟(٣) !

وقد نص القرآن فى غير موضع منه على أن آياته محكمة ومفصلة :

« هو الذى انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب »(٤) .

« واذا انزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال ، رايت

---

(١) سورة الشعراء : ١٩٢ (٢) سورة حم : ١ — ٢

(٣) يقول الأستاذ ابو الأعلى المودودى نفسه فى تفسير كلمة « المبين » : «انها تعنى أن هذه آيات القرآن الذى يفصح عن مفاهيمه ومدلولاته فى صراحة ووضوح » الجزء الثانى من تفهيم القرآن (اردو) راجع تفسير سورة الحجر .

(٤) سورة آل عمران : ٧

الذين في قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت »(١) .

« الر ، كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير »(٢) .

يقول المفسر الشهير الحافظ عماد الدين ابو الفداء اسمعيل ابن كثير (م ٧٧٤ هـ) في تفسير « محكمات هن ام الكتاب » : « اى بينات واضحات الدلالة ، لاالتباس فيها على احد » ويسرد في هذا المعنى قول محمد بن اسحاق بن يسار : « فهن حجة الرب وعصمة العباد ، ودفع الخصوم الباطل ، ليس لهن تصريف ولا تحريف عما وضعنا عليه »(٣) .

ويقول العلامة شهاب الدين السيد محمود بن عبد الله الالوسى (م١٢٧٠هـ) في تفسيره المعروف « روح المعانى » لدى الحديث عن « محكمات » : « صفة آيات : اي واضحة المعنى ، ظاهرة الدلالة ، محكمة العبارة ، محفوظة من الاحتمال والاشتباه »(٤) .

---

(١) سورة محمد : ٢٠ (٢) سورة هود
(٣) انظر تفسير ابن كثير ـــ سورة آل عمران .
(٤) « روح المعانى » الجزء الأول ، سورة آل عمران

أما كون الآيات القرآنية مفصلة ، فقد جاء النص على ذلك في ١٥ موضعا من القرآن الكريم ، في مختلف الصيغ وأنواع الأساليب(١) .

ان هذه الصفات والنعوت هي الأخرى تنافي الفكرة القائلة بأن العديد من الحقائق القرآنية ظلت خافية على الناس الى مدة طويلة .

ثم ان هذا الأسلوب من التفكير يناقض قوله تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »(٢) والوعد بالحفظ في موضع الامتنان وتذكير الفضل والاحسان ، يستوجب الفهم والشرح والعمل والتطبيق ، فلا خير في كتاب يبقى ولا يفهم ولا يعمل به وقد قال لرسوله :

« ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه(٣) » .

يقول حكيم الاسلام احمد بن عبد الرحيم ولي الله الدهلوي

---

(١) اقرأ الآيات : ٥٨ ، ٩٧ ، ٩٨و١٢٦ من الأنعام . و ٣٢ ، ٥٢ ، ١٧٤ من الأعراف .. و ١١ من التوبة ... و ٥ من يونس .. ٢٤ و ٢٨ من الروم .. و ٢ من الرعد .. و ١ من هود .. و ٣ ، ٤٤ من فصلت

(٢) سورة الحجر : ٢١

(٣) سورة القيامة : ١٧ ـــ ١٩

(م١١٧٦هـ) فى كتابه القيم « ازالة الخفاء عن خلافة الخلفاء » فى معرض الحديث عن « ان علينا بيانه » :

« يقول الله تبارك وتعالى : ان علينا ابانة القرآن وايضاحه فسنظل نقيض فى كل عصر جماعة كثيرة العدد تقوم بشرح كلماته التى تحتاج الى الايضاح ، وبيان اسباب النزول ، حتى يتحقق الناس مفاهيمها الأصلية ومصاديقها الصحيحة ، الا ان دوره يأتى بعد حفظ القرآن وتبليغه ونشره ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم نفسه هو المفسر للقرآن وشارحه الأول .. وجاء دور تفسير القرآن — فى الواقع العملى — بعد ما تم تدوينه وجمعه فى المصاحف ، وبعد ما عمت تلاوته وقراءته ، وكان سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنه هو رائد هذا العمل(١) » .

اذا فبعد هذا الوعد الالهى المؤكد الصريح المتمثل فى « ان علينا بيانه » لا مساغ للقول بأن الكلمات القرآنية الجذرية ، التى لا يمكن الوصول الى مفاهيم القرآن ومعانيها الحقيقية واحكامه ومطالبه المرادة ، بدونها ، بقيت قرونا طوالا غير مفهومة ، منطوية على معانيها ، ولا يعنى هذا الاعتقاد الا نقضا للآية الكريمة السالفة الذكر ، فى مفهومها ومعناها ومقتضاها .

---

(١) «ازالة الخفاء عن خلافة الخلفاء» فى اللغة الفارسية ، ص ٥١ .

الامة المسلمة لم تقع فريسة الجهالة المطبقة والضلالة الشاملة في اى دور من ادوارها :

ان هذا الاسلوب من البحث وهـذا المنهـج من التفكير ، قد يجعلان الانسان يفهم ـ منطقيا ـ انه قد اتى على هـذه الامة المسلمة عهد طويل بقيت فيه جاهلة لمصطلحات القرآن الاساسية ومعانيها ومدلولاتها الحقيقية ، التى تتوقف عليهـا صحة تفكيرها وصحة عملها ، الامر الذى يرمى الامة بالجهل الصريح والاهمـال الهائل بل وبالضلال المبين ايضا ، على حين ان الكتاب والسـنة ودواوين الاحاديث بمجموعها تدل دلالة مبدئيـة على أن هـذه الامة ـ بالعكس من الامم الاخرى السـابقة ـ سـوف لا تمنى بالضلال المطبق الشامل فى اى عهد من عهودها ، قد صرح بذلك كبار الائمة وجهابذة المحدثين .. وقد جاء فى حديث « لا تجتمـع امتى على ضلالة » يقول المحدث الاندلسى المعروف ـ واحد كبار نقاد الحديث ـ العلامة ابو محمد على بن حزم (المتوفى ٤٥٦هـ) فى كتابه « الاحكام فى اصول الاحكام » :

« قالوا (المحدثون) فصح انه لا تجتمع امة محمد (ص) على غير الحق ابدا لانه عليه السلام قـد انذر انه لا يزال منهـم

قائم بالحق ابدا ، وقد روى انه عليه السلام قال : « لا تجتمع امتى على ضلالة » وهذا وان لم يصح لفظه ولا سنده(١) . فمعناه صحيح بالخبرين المذكورين آنفا »(٢) . « اشارة الى الخبرين اللذين ساقهما فيما قبل هذه السطور ، مرويا احدهما عن ثوبان ، وثانيهما عن معاوية رضى الله عنهما ، وهما : « لا تزال طائفة من امتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك » و « لا تزال طائفة من امتى قائمة بامر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى امر الله وهم ظاهرون على الناس » وفى رواية : « وهم على ذلك ») .

ويقول العلامة الحافظ ابو عبد الله شمس الدين ابن قيم الجوزية (م٨٩١هـ) : « فان الامة ـ ولله الحمد ـ لم تجتمع على ترك العمل بسنة واحدة ، الا سنة ظاهرة النسخ ، معلوم للامة ناسخها وحينئذ يتعين العمل بالناسخ دون المنسوخ »(٣) .

---

(١) هذا ما يراه العلامة ابن حزم ، أما المحدث الشهير والناقد الكبير العلامة السخاوى ، فيقول : « وبالجملة فهو حديث مشهور المتن ذو اسانيد كثيرة وشواهد متعددة ، (انظر كتابه « المقاصد الحسنة » فصل اللام الف) .

(٢) « الأحكام فى اصول الأحكام » ج ٤ ، ١٣١ ، الطبعة الأولى ، طبع مطبعة السعادة بمصر .

(٣) « أعلام الموقعين » ج ٢ ، ص ٣٢٠

ويقول الحافظ ابن كثير ـ وهو يفسر قوله تعالى : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين » الخ :

« فانه قد ضمنت لهم العصمة فى اجتماعهم من الخطأ ، تشريفا لهم وتعظيما لنبيهم ، وقد وردت أحاديث كثيرة فى ذلك »(١) .

ويقول شيخ الاسلام تقى الدين احمد بن عبد الحليم بن تيمية رحمة الله عليه (م ٧٢٨هـ) خلال البحث فى « الاجماع » :

« واما اجماع الأمة فهو حق ، لا تجتمع الأمة ـ والحمد لله ـ على ضلالة كما وصفها الله بذلك فى الكتاب والسنة ، فقال تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » وهذا وصف لهم بأنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر ، كما وصف نبيهم بذلك فى قوله: « الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر » وبذلك وصف المؤمنين فى قوله : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف

---

(١) تفسير ابن كثير . ج ٢ ص ٣٩٣ ، طبع « دار الأندلس»

وينهون عن المنكر » فلو قالت الأمة فى الدين بما هو ضلال لكانت لم تأمر بالمعروف فى ذلك ، ولم تنه عن المنكر فيه ، وقال تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »(١) .

شهادة العقل السليم :

ولا يمكن للعقل السليم أن يؤمن بأن هذه الأمة — التى أنجبت عددا هائلا من عباقرة العلماء ونوابغ المدونين للعلوم والفنون وعماليق فى الذكاء والفكر ، لا سيما فى القرون التى تلت عهد الرسالة وعصر نزول القرآن — عاشت فى جهل متصل بتلك الحقائق الأساسية التى هى مفتاح فهم القرآن ومحور الدعوة الى الخير .. والأستاذ المودودى نفسه يرفض أن يسلم أن علماء

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام أحمد بن تيمية ج ١٩ ، ص ١٧٦ — ١٧٧ .

واقرأ للتفصيل والاطلاع على الدلائل الشرعية والعقلية فيما يتصل بصيانة الدين ، البحث القيم للعلامة الامام أبى اسحاق الشاطبى (المتوفى ٧٩٠ هـ) بعنوان « المسألة الثانية عشرة » فى الجزء الثانى من كتابه العظيم « الموافقات فى أصول الشريعة » الذى استهله بما يلى : « ان هذه الشريعة المباركة معصومة كما أن صاحبها صلى الله عليه وسلم معصوم ، وكما كانت أمته فيما أجمعت عليه معصومة » ج ٢ ص ٥٨ الى ٦١ ، ويجدر بالدراسة ما قاله المؤلف بشأن صيانة الدين من ناحية الواقع العملى والتاريخى .

الأمـــــة بأجمعهم قـــد اخطأوا فى فهم نص من نصـــوص القرآن او الحديث ، وما تبينوا الخطأ الى مدة مـــديدة ، يقـــول الأستاذ الفاضل خلال البحث فى حديث « الائمة من قريش » :

« هل يجدر بان يسلم ان علماء الامـــة باسرهم قد اخطـــأوا فى فهم نص من النصوص وانهـــم ظلوا رهـــان هـــــذا الخطـــأ قرونا ؟ »(١) .

على حين ان حديث « الائمة من قريش » لا يتصل بالعقائد ، ولا بضروريات الـــدين ولا بأوليـــاته وقطعيـــــاته ، أما تلـــــك المصطلحات القرآنية الأربعة ، فانها قطب تدور حـــوله رحى الدين وهى مناط الفكر والعمل فى هذه الأمة ، وشتان بينهما .

وقد احتج الأستاذ فى ضـــوء هـــذا المبدأ ـــ الذى يقـــرره العقل السليم والمنطق المستقيم ، ويستوجبه الاعتراف والتسليم ـــ على القاديانية بكلمة « خاتم النبيين » التى بقيت الأمـــة المســـلمة عبر عصورها لا تفهم منهـــا الا معنى واحـــدا ، ليس الا ، وقـــد سرد فى هذا الصدد أقوال ائمة الأمة فى كل عهـــد من عهودها .

---

(١) تفهيمات (بالأردية) الجزء الثالث . ص ١٧٦ . توزيـــع المكتبة المركزية للجماعة الاسلامية . دهلى ـــ الهند .

تحليل وتعليق بقلم العالم المصرى والمرشد العام « للاخوان المسلمين » : الأستاذ حسن اسماعيل الهضيبى[1]

يقول المرحوم الأستاذ حسن اسماعيل الهضيبى — الذى عين مرشدا عاما للاخوان المسلمين بعد الامام الشهيد حسن البنا ، باتفاق اعضاء الجماعة ، وقد اتفقت كلمتهم على غزارة علمه وصلاحه واخلاصه وفهمه الدينى ، وعزيمته واستقامته — معلقا على ما اسلفت من كلمة الأستاذ المودودى فى كتابه « المصطلحات الأربعة فى القرآن » فى كتابه « دعاة لا قضاة » الذى صدر حديثا فى القاهرة :

« ان هذا التقرير لا يتفق مع الواقع ، ذلك انه أيا كانت المعانى التى كانت شائعة فى الجاهلية لتلكم الكلمات ، فان القرآن الكريم قد جاء محددا ما يقصده من كل منها ، معرفا المفهوم المعنى من كل لفظة من الفاظها ، مبينا ذلك غاية البيان ، مجليا المعنى المراد بما لا يدع مجالا للبس أو غموض . وهذا البيان القرآنى قد اغنى عن الرجوع الى اصل تلك الكلمات فى اللغة وما كان لها من معان قبل نزوله ، ولا يسترسل مسلم ان بيان القرآن الكريم هو الاحكم والأوضح والاشمل والاجل ، بل هو الذى يتعين الاخذ به والتسليم بمقتضاه . وافق ذلك ما كان قبل نزوله

---

(١) توفى رحمه الله سنة ١٣٩٣ هـ

أم لا »(١) .

ثم يضيف قائلا — بعد ما استشهد بالآيات التى استخدمت فيها هاتى الكلمات :

« ليصبح — فى الواقع — انه لما كان العرب قبائل شتى متفرقة ومختلفة ، ولكل منها لهجتها ، لا تجمعها رئاسة او نقابة او معتقدات موحدة ، وكانوا امة امية ، ندر فيهم من الم بالقراءة وبالكتابة ، يكسوهم الجهل والانحطاط ، ليس لهم كتاب او احاطة بعلم او فن .. لما كانوا كذلك كان مفهوم كلمات « الاله » و « الرب » و « العبادة » و « الدين » شائعا بينهم ، معروفا لدى كل امرىء منهم على حد سواء وعلى صفة معينة محددة .. فلما نزل كتاب الله بالذكر المحفوظ الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، مشتملا على البيان الجلى والايضاح الشامل ، يتعبد الناس بتلاوته آناء الليل واطراف النهار ، ويجهرون به فى صلوات تقام جماعة فى المساجد وغيرها ، ضاعت تلك المعانى واندثرت ، ولم تعدّ شائعة بين الناس بمثل ما كانت شائعة بينهم فى الجاهلية . ليصبح ذلك وكتاب الله محفوظ بين المسلمين ولو قرأ ايهم الفاتحة او قلّ هو الله احد ، او المعوذتين ، او سمعها ، لاطلع وعرف وابصر ما لم يسكن يعرف الجاهلى

---

(١) « دماة لا قضاة » ص ١٩ — ٢٠

عنه شيئا »(١) .

« اما واذ جاء القول : (ان الذين ولدوا فى المجتمع الاسلامى ونشأوا فيه لم يكن قد بقى لهم من معانى كلمات « الاله » و « الرب » و « العبادة » و « الدين » ما كان شائعا فى المجتمع الجاهل قبل نزول القرآن » بغير برهان يقوم حجة على صدقه وصحته ـ فانه يكون مجرد قول لا حجة ، ولا يجوز اتباعه ولا يصح ان تبنى عليه احكام ، وما سبق ان اجتزأناه من كتاب الله من آيات ، شامل على معانى الالوهية والربوبية ، والمفسرون ما اقتصروا قط على تفسير كلمة « الرب » بمعنى دون سائر المعانى التى تشملها ، وانما هم فسروا الكلمة فى كل موضع على المعنى الذى يدل عليه السياق »(٢) .

واعقب المؤلف بكثير من الآيات القرآنية تجلى لكلمة

---

(١) نفس المصدر ، ص : ٢٥ .
(٢) نفس المصدر ، ص : ٢٥ .
والنظرة على كتب التفسير والمعاجم ودواوين اللغة التى وضعت فى ادوار مختلفة ، وعلى مؤلفات رجال العلم والبحث ومواعظ رجال الاصلاح والدعوة والعلماء الربانيين وكلماتهم وما دار فى مجلسهم من حديث وحوار ـ تلك التى قيدت الى حد كبير فى كلماتها الاصيلة ـ تدل دلالة واضحة على أن تلك الكلمات قد فهمت على حقيقتها وعرضت على صحة معانيها عبر العهود ، الا ان القوم لم يقتصروا على معنى واحد ولم يحددوها فى اطاره كما فعل بعض المتأخرين .

« الرب » معانيها القرآنية المختلفة كما سرد عددا كبيرا من الآيات يلقى الضوء القوى على كلمتى « العبادة » و « الدين » ثم يقول بعد ما سرد قول الأستاذ المودودى الذى جاء فيه :

« لما نزل القرآن فى العرب وعرض على الناطقين بالضاد ؛ كان حينئذ يعرف كل امرىء منهم ما معنى « الاله » وما المراد بـ « الرب » لأن كلمتى الاله والرب كانتا مستعملتين فى كلامهم منذ ذى قبل ، وكانوا يحيطون علما بجميع المعانى التى تطلقان عليها ، ومن ثم اذا قيل لهم : لااله الا الله ولا رب سواه ولا شريك له فى الوهيته وربوبيته ، ادركوا مادعوا اليه تماما ، وتبين لهم من غير ما لبس ولا ابهام اى شىء هو الذى قد نفاه القائل ، ومنع غير الله ان يوصف به ، واى شىء قد خصه واخلصه لله تعالى » :

« فنقول ـ بعون الله ـ : انه ان كان المقصود بهذا القول القطع بأن كل فرد ممن كان بنجد والحجاز وغيرهما وقت بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام على وجه التحديد والتعيين . قد أدرك بغير ما لبس ولا ابهام ما دعى اليه ، وكان على علم كامل شامل بمعنى كلمتى « الاله » و « الرب » وحقيقة التوحيد ، وبالجملة : المفهوم الكامل الشامل بشهادة « لااله الا الله » ان كان هذا هو المقصود فانه يكون قولا فى حاجة لاقامة البرهان على

صحته ولا يكفى للتدليل على صحة هذه الدعوى الادعاء بشيوع معانى كلمتى « الاله » و « الرب » بين العرب الناطقين بالضاد .

اولا : لأن الشيوع مهما بلغ واشتد ، معناه معرفة الكثرة الغالبة بالأمر ، ولا يرقى الى حد القطع والتيقن من حقيقة علم كل فرد على وجه التحديد والتعيين ، فمن ذا الذى احصاهم عددا ، وتاكد من حقيقة امر كل منهم فردا فردا ، ليجزم باستحالة ان يكون بينهم من اخطأ الفهم او لم يصله العلم .. ؟

ثانيا : ان الذين كانوا بنجد والحجاز وغيرهما . لم يكونوا كلهم من العرب الخلص العالمين باللغة العربية كأهلها ، بل كان فيهم بيقين كثير من المستعربين والأرقاء المستجلبين من نواح شتى واجناس مختلفة ، وكان فيهم ايضا الأحرار الأجانب الاعجميو اللسان ، فلا يصدق فى حقهم القولَ بالفهم كفهم الناطق بالضاد ، ولقد حفظ لنا التاريخ أسماء كثيرين من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من فارسيين ورومين واحباش ، واشار القرآن الكريم الى وجود هؤلاء الأجانب : « لسان الذى يلحدون اليه اعجمى وهذا لسان عربى مبين »(١) .

التصوير القاتم للعالم الاسلامى والتاريخ الاسلامى :

وحينما يقول الأستاذ المودودى فى صراحة ودَون تحفظ :

---

(١) نفس المصدر ، ص : ٣٠ .

« ولكنه في القرون التي تلت ذلك العصر الزاهر جعلت تتبدل المعاني الاصلية الصحيحة لجميع تلك الكلمات ، تلك المعاني التي كانت شائعة بين القوم عصر نزول القرآن » و « انه قد خفي على الناس معظم تعاليم القرآن ، بل قد غابت عنهم روحه السامية وفكرته المركزية لمجرد ما غشى هذه المصطلحات الأربعة الأساسية من حجب الجهل » .

فطبعا يبدو له تاريخ هذه الأمة الماضي كله سلسلة متصلة الحلقات من الجهل والانحطاط ، وتبدو له القرون الوسطى الاسلامية — وقد اعترف بمآثر عدد من المجددين « الجانبيين » ظهروا خلال هذه الفترة — عقيمة مجدبة ، نعم .. قد تلمح — في هذا الظلام المخيم على العالم الاسلامي — بارقة محاولات الاصلاح والتجديد في ناحية من نواحي العالم الاسلامي « كلما اضاء لهم مشوا فيه واذا اظلم عليهم قاموا » .

ان هذا الاسلوب من التفكير يجعله — منطقيا وطبيعيا — يصور العالم الاسلامي فيما بعد عهد الصحابة والتابعين(١) تصويرا يشكك الشباب المسلم المثقف ، الذكي الرقيق الشعور — الذي لم تتسن له فرصة لدراسة تاريخ الاسلام العلمي والفكري.

---

(١) على أن بعض كتاباته تشف عن أن عهد الصحابة والتابعين أيضا لم يكن مثاليا بالتمام

والاصلاحى والتجديدى دراسة عميقة واسعة ـــ فى خلود الرسالة الاسلامية ، وأبدية تعاليم الاسلام ، وصلاحية الاسلام الانتاجية ، وقدرته على صنع « الرجال » وتربية العباقرة والابطـــال ، وان شجرة الاسلام لا تعرف الذوى والذبول ، وانها دائمة الحيـــاة والشباب ، والاخضرار والاثمار ، تؤتى اكلها كل حين باذن ربها ، وان خلية الاسلام تعمل فى كل حين وآن ، وفى كل زمان ومكان . . فتتزعزع ثقته بمصير الاسلام ويقع ـــ الى حـد ما ـــ فريســة « مركب النقص » واليأس ، ويخيل اليه ان تربة الاسلام لا تصلح للانبات مهما هطلت عليها الامطار ، وصب « الفلاحون » عليهـا جهدهم وسقوها بعرق جبينهم آناء الليل والنهار .

قد يشعر القارىء بشىء من القسوة فى هذا الحكم ، ويقول لقد بنى كل المصلحين والمسلمين فى الاسلام عملهم الاصلاحى على نقد المجتمع الاسلامى وعدم ارتياحهم الى الوضع السائد ، كذلك الغزالى فى كتابه « الاحياء » وابن تيمية فى كتابه « الـرد على البكرى » و « الرد على الاخنائى » والشيخ عبد القادر الجيلى فى خطبه ومواعظه المجلجلة ، والشيخ عبـد الرحيـم الدهلوى ، وحفيده الشيخ اسماعيل الشهيد فى كتاباتهما ، ولكن لا يعـزبن عن البال ان نقدهم كان موجهـا الى عصرهم وبيئتهـم فحسب ،

لم يكن شاملا للتاريخ الاسلامى ، ولا للامة الاسلامية فى جميع أدوارها وأمصارها وشتان ما بين الأسلوبين .

وكل من صدر من قلمه ما يشعر بجدب التاريخ الاسلامى ، وعقم الأمة المحمدية ، وشيوع الظلام ، وانتشار الانحراف والضلال فى عالم الاسلام ، يحمل كلامه على التسرع فى الحكم ، ونقص الاطلاع على تاريخ الاصلاح والتجديد ، ولا يستثنى المؤلف نفسه عن التورط فى هذا الخطأ فى كتاباته المبكرة التى صدرت عنه قبل النضج الفكرى ، والدراسة الاختصاصية الواسعة(١) ، وقد تفطن لهذا فى كتابه الشهير « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » وقد جاء تحت عنوان « انكار الدين على المسلمين واهابته بهم » :

« ولا يعزبن عن البال أن الدين لم يزل طول هذه المدة حيا محفوظا من التحريف والتبديل ، مهيبا للمسلمين ، ناعيا عليهم انحرافهم عن طريقه ، ولم يزل مناره عاليا ، وضوؤه مشرقا « يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم » ولم يزل

---

(١) كما جاء فى كتابه الشهير الواسع الانتشار فى شبه القارة الهندية « سيرة سيد أحمد شهيد » بعنوان عصر السيد الامام (٥٥ ــ ٥٨) وليعلم أن هذا الكتاب هو باكورة مؤلفاته ، قد بدأ بتاليفه وكتب هذا الفصل ، وهو فى الثانية والعشرين من عمره .

الكتاب والسنة يبعثان فى نفوس القراء ثورة على الشرك والبدع ، وعلى الجهالة والضلالة ، وثورة على أخلاق الجاهلية وعوائدها ، وثورة على ترف المترفين واستبداد المسلوك ، ولم يسزل ينهض بتأثيرهما فى كل دور من أدوار التاريخ الاسلامى ، وفى كل ناحية من نواحى العالم الاسلامى ، رجال يقومون فى هـذه الأمـة على طريقة الأنبياء ، يجددون لها أمر دينها الخ(١) .

وقال تحت عنوان « نتاج القرون المنحطة » :

« وظلت خلية الاسلام تعمل فى أدوار الانحطاط أيضـا ؛ ويظهر من الملوك والفاتحين أفراد هم انموذج الصحابة والسلف الصالح فى سيرتهم وأخلاقهم ، فى دينهم وتقـواهم ، وينهض فى العالم الاسلامى رجال يتجمل التاريخ بذكرهم .

وكان المسلمون رغم انحرافهم عن سيرتهم الأولى وطريقهم المثالى أقرب الى طريق الأنبياء ، وأطوع لله من الأمم الجاهليـة المعاصرة لهم .

وكان وجودهم ودولتهم أكبر عائق للجاهلية فى انتشـارها وازدهارها ، وكانوا رغم نقائصهم أكبر قوة فى العالم تهابهـا

---

(١)ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، الطبعة العاشرة ، دار الانصار ، ص ١٥١ ، ١٥٢

الدول وتحسب لها كل حساب »(١) .

ولازالة هذا الانطباع المستعجل الف كتابه الكبير «رجال الفكر والدعوة فى الاسلام »(٢) الذى استعرض فيه الجهود الاصلاحية التجديدية فى تاريخ الاسلام الدينى والفكرى والاجتماعى ، وذكر كبار قادتها وزعمائها ، من مختلف الطبقات الاسلامية ، والعصور التاريخية ، واثبت فى مقدمته ان حركة الاصلاح والتجديد تكاد تكون متصلة الحلقات لا تتخللها فترة طويلة .

وعندما يتحدث الأستاذ فى مثل هذا الموضوع ، يأخذه الحماس فيرخى العنان لقلمه ، فيصول ويجول ، ويأخذ اسلوبه الكتابى طابعا آخر ، عاطفيا خطابيا ، غير الطابع العلمى الهادىء المعهود المتبع لديه ، ولندعه يؤكد صدق ما نقول :

« ان روح التحقيق والاجتهاد . وحرية الفكر والراى ، وحرية نشدان الحق ، التى خلقها النبى صلى الله عليه وسلم فى أتباعه ، ظلت تعمل عملها بكل قوة زهاء ثلاثة قرون ، ثم بدأ استبداد الأمراء والحكام ، والعلماء والمشايخ يصيب منها : ثم انتزع من العقول المفكرة حقها فى التفكير ، ومن العيون المبصرة

---

(١) أيضا ص ١٥٧.

(٢) الكتاب فى ثلاثة أجزاء فى « اردو » ظهر لها جزءان بالعربية تتبعها أجزاء أخرى .

حقها فى البصارة ، ومن الألسن الناطقة حقها فى النطق ، وصار المسلمون يدربون فعلا على الرق والعبودية فى كل مكان : فى مجالس الأمراء ، وفى المدارس وفى الزوايا ، وسيطرت عليهم عبودية العقل والقلب ، وعبودية الجسم والروح ، وانشأ فيهم رجال الحكم نفسية العبودية بحملهم على الركوع والسجود لهم وجرعهم رجال المدارس كأسا مسمومة من تقديس «الاكابر» و « العظماء » مع تقديس الله ، ومسخ رجال الزوايا طريقة السنة للبيعة ووضعوا فى اعناقهم غلا من العبودية « المقدسة » لم يخترع الانسان لانسان آخر من ذى قبل غلا أشد وأثقل منه .. واذا بدا الناس يتطامنون برؤوسهم الى الأرض لغير الله ، واذا جعلوا يضعون احدى يديهم فوق الأخرى امام غير الله كالصلاة ، واذا اصبح النظر الى الانسان يعتبر اساءة ادب ، واذا بدأت أيدى البشر وارجله تقبل ، واذا اصبح الانسان الها للانسان ومالكه ورازقه ، واذا عاد الانسان مستبدا « بالأمر » و « النهى » ، واعتبر غنيا عن الاستناد الى الكتاب والسنة ، واعتبر معصوما من الخطايا وبريئا من العيب والنقيصة ، واذا أضحى الأمر والراى البشرى يعد واجب الامتثال والاطاعة كأمر الله تماما — فى الواقع العملى وان لم يكن فى الواقع الاعتقادى — فتأكد أن ذلك يعنى التولى عن الدعوة المتمثلة فى « الا نعبد الا الله ولا نشرك

به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله » ولا يعود بعد ذلك امل فى تقدم علمى واخلاقى وروحانى ، بل يؤدى ذلك حتميا الى الزوال والانحطاط »(١) .

وكذلك يقول فى صريح العبارة فى كتابه « التجديد واحياء الدين » — وهو يستعرض محاولات الاصلاح والتجديد فى تاريخ الاسلام ومآثر اولئك الأعلام الذين حملوا لواءهما والخدمات المخلصة والجهود المشكورة التى قاموا بها فى هذا السبيل — :

« نظرة عجلى على التاريخ تدل على انه لم يظهر مجدد — فى معنى الكلمة — بعد ، وكاد عمر بن عبد العزيز أن يعتلى هذا المنصب ، ولكنه لم يتمكن منه ، وكل من ظهر من بعده من رجال التجديد ، اقتصروا على العمل فى ناحية او نواح خاصة ، ولا يزال منصب المجدد الكامل شاغرا »(٢) .

تبشير الأحاديث الصحيحة باستمرار ظهور القائمين بالحق وبتواصل الجهود الرامية الى اعلاء الحق ورفع مناره عاليا :

ان هذا الأسلوب من التفكير ، وهذه النتيجة النابعة من

---

(١) « تفهيمات » ج ١ ص ١٣٧ — ١٣٨ (فى الاردية) توزيع المكتبة المركزية للجماعة الاسلامية بالهند .

(٢) « التجديد واحياء الدين » (باللغة الاردية) ص ٣١ ، توزيع مكتبة الجماعة الاسلامية ، دار الاسلام « بتان كوت » بنجاب .

دراسة التاريخ يتعارضان مع مفهوم تلك الأحاديث الصحيحة الصريحة التى تنبىء بأن الفرصة التى اكرمت بها هذه الأمة للعمل فى هذه الدنيا ، سوف لا تخلو لمحة من لمحاتها كليا من القائمين بالحق ، والمجاهدين فى سبيله :

جاء فى صحيحى البخارى ومسلم :

« لا يزال ناس من امتى ظاهرين حتى يأتيهم امر الله وهم ظاهرون »(١) .

وجاء فى جامع الترمذى :

« لا تزال طائفة من امتى منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة »(٢) .

وقد جاء فى رواية ابن ماجة اوضح واصرح :

« لا تزال طائفة من امتى قوامة على امر الله ، لايضرها من خالفها »(٣) .

وجاء فى رواية اخرى فى جامع الترمذى :

« مثل امتى مثل المطر لا يدرى آخره خير ام اوله »(٤) .

وفى رواية مستدرك الحاكم :

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب المناقب
(٢) جامع الترمذى ، كتاب الفتن ، باب ما جاء فى الشام ..
(٣) سنن ابن ماجه ، كتاب الفتن .
(٤) جامع الترمذى .

« لا تزال طائفـــة من أمتى ظاهرين على الحق حتى تقـــوم الساعة »(١) .

اتصال محاولات الاصلاح والتجديد فى التاريخ الاسلامى :

ثم ان دراسة التاريخ الأمينة الواســـعة العميقـــة ـــ التى لم تقتصر على كتب التاريخ « التقليـــدى » الاصـــطلاحى ، وعلى المؤلفات والمطبوعات المتداولة ـــ تنفى هذه الفكرة وترفضـــها ، وتؤكد ان محاولات الاصلاح والتجديد ، ومحاربة الجاهلية والظلام، ومقاومة الحركات الهـــدامة والتيار المنحرف والفتن العميـــاء ، والوقوف فى وجه الهجمات الخارجية والداخليـــة على الاسلام ، وتحدى القوى المتآمرة ضد الاسلام ، ومجابهة الغواية العقيدية والفكرية والشذوذ العلمى والأخلاقى ، وعمليـــة ازاحة اللثـــام عن وجه الاسلام الحقيقى ونفض الغبـــار عن لجينه الصـــافى ، وعرض تعاليم الاسلام فى ثوب قشيب ولباس جديد كاملة غير منقوصة خالصة غير مخدوشة .. متصلة ومســـتمرة فى تاريخ الاسلام دون انقطاع او تخلل فترة قصيرة . فاذا نهض هناك دارس لتاريخ الاسلام والمسلمين ، صبور على المطالعة ، واسع الأفق ، دقيق الملاحظة ، بعيد الهمة ، تخصص لهذا الموضوع ، وادعى ـــ ولديه الشعور الكافى بالمسئولية ـــ بأن حلقات هـــذه السلسلة

---

(١) مستدرك الحاكم .

الذهبية كلها متصلة بعضها ببعض ، ولم تنقطع عنها حلقة ، فلن يجوز أن نرميه بالتطرف في احسان الظن ، وبمحاولة تخدير الأمة فكريا ، لأن الذنب ليس على التاريخ ، وانما الذنب على منهاج التاليف وكتابة التاريخ(١) ، ولأن عدم وجود الوثائق التاريخية منسقة في موضوع ، لا يدل من قريب أو بعيد على عدم وجود الوقائع والمواد والشهادات والدلائل التاريخية أصلا ، وتلك هي تجربة متكررة مطردة في التاريخ العلمي يمر بها مرة بعد اخرى كل من يعنى بدراسة التاريخ ، أو يتخصص في هذا الموضوع ، أو ينشغل به ، واذا صرفنا النظر عن التاريخ ومنطقه ولغته وأسلوبه، فان كلمة شيخ الاسلام ابن تيمية الحكيمة « عدم العلم لايستلزم عدم الوجود » تعبر عن حقيقة علمية وتسلط الضوء على الطريق ، فان كان هناك عالم لم يتسن له الاطلاع على اتصال محاولات الاصلاح والتجديد ، ولم تدعه أوضاعه وملابساته ومسئولياته الخاصة ، وتكوينه العقلي والنفسي أن يدرس هذا الموضوع دراسة اختصاص ، فان ذلك لا يعني أن هذه المحاولات لم تتحقق أصلا .

---

(١) وكتاب «رجال الفكر والدعوة في الاسلام» (الذي صدرت منه ثلاثة اجزاء في أردو ، وجزآن بالعربية) لكاتب هذه السطور محاولة متواضعة في هذا الاتجاه وستتضح الحقيقة جلية واضحة عندما تتم هذه السلسلة باذن الله .

الفعل النفسي لأسلوب التفكير السلبي :

والتشكيك في صلاحية الأمة المسلمة للانجاب والانتاج

وقدرة شجرة الاسلام الطيبة — التي هي مصداق « تؤتي أكلها كل حين باذن ربها » على الاثمار ، وغض البصر عن كل ما تحقق عبر تاريخ الاسلام والمسلمين الطويل من مآثر وجهود ومحاولات مستمرة في مجال الاصلاح والتجديد وتغيير الأحوال ، واعادة الأمور الى نصابها ، أو التقليل من شأنه ، والنظر الى التاريخ الاسلامي بالمنظار الأسود .. ان هذا الأسلوب (Technique) أو الخطة « الاستراتيجية » قد استخدمها أولئك الذين أبوا الا أن يبنوا بناءهم على انقاض التاريخ الاسلامي والفكر الاسلامي ، والذين اعتقدوا أن الناس لا يقدرون ما يقومون به من « تحقيق واجتهاد » ولا يتهيأ الجو لحركتهم ودعوتهم ما لم يثيروا الشبهات في الأذهان حول هذا التراث التاريخي الهائل ، وما لم يرسخوا فيها ضآلته وتفاهته وعدم غنائه .. ويمكن أن نضرب في ذلك مثلا بمؤسسي فرق وحركات عديدة ، الا اننا لا نؤمن أبدا بأن ما صدر من قلم الأستاذ المودودي في هذا الموضوع كان استخداما لهذا الأسلوب أو الخطة الاستراتيجية ، لكن مهما كان ذلك عن خلوص نية وحسن طوية ، فان نتيجته السلبية الطبيعية لابد أن تتحقق ، وذلك ما يقتضيه المنطق السليم وطبائع الأشياء وقانون الأسباب والمسببات في الكون .

ومن ثم فان الذين يقتصرون على دراسة كتابات الاستاذ المودودى ولم يفهموا الاسلام والدعوة الاسلامية وتعاليم الاسلام والتاريخ الاسلامى ، الا من خلال كتاباته ومقالاته ومؤلفاته قد بلغ بهم اليأس من تاريخ الاسلام وماضى المسلمين ومآثرهم العملية والفكرية فيما بعد القرون الثلاثة الأولى ، حتى تضاءلت لمامهم الشخصيات الاسلامية المملاقة ، وقلت قيمة الجهود التى بذلت فى سبيل النهوض بالاسلام والمسلمين وإدالة هذا الدين من الجاهلية فى الماضى ، وقيمة المآثر العلمية التى تحلى بها تاريخ الاسلام الفكرى والعلمى وازدانت بها المكتبة العالمية ، وآمن كثير منهم — وصرح به بعضهم — أن فكرة الاسلام المنسقة او التصور الاسلامى الكامل لم يعرض الا فى هذا الزمن الأخير عن طريق دعوة « الجماعة الاسلامية » فى شبه القارة الهندية وبقلم مؤسسها فى الثلاثينات من القرن العشرين .

الاقتصار على حاكمية « الاله » و « الرب » :

ومحور المصطلحات القرآنية الأربعة الأساسية عند الأستاذ المودودى وفكرتها المركزية الأساسية هى « حاكمية الاله والرب » أما « الدين » و « العبادة » فهما — فيما يراه — طريقان يؤديان اليها ، يقول — وهو يشرح مصطلح « الاله » :

« فخلاصة القول ان اصل الألوهية وجوهرها هو السلطة

سواء أكان يعتقدها الناس من حيث أن حكمها على هذا العالم حكم مهيمن على قوانين الطبيعة ، أو من حيث أن الانسان في حياته الدنيا مطيع لأمرها وتابع لارشادها ، وأن أمرها في حد ذاته واجب الطاعة والاذعان ، وهذا هو تصور السلطة الذي يجعله القرآن الكريم اساسا لما يأتي به من البراهين والحجج على انكار الوهية غير الله واثبات الالوهية لله تعالى وحده »(١) .

ويقول بعد ما يقدم آيات قرآنية كثيرة كدليل على دعواه :

« ففي جميع هذه الآيات من أولها الى آخرها لا تجد الا فكرة رئيسية واحدة ، الا وهي أن كلا من الالوهية والسلطة تستلزم الأخرى ، وأنه لا فرق بينهما من حيث المعنى والروح ، فالذي لا سلطة له ، لا يمكن ان يكون الها ، ولا ينبغي أن يتخذ الها ، وأما من يملك السلطة فهو الذي يجوز أن يكون الها ، وهو وحده ينبغي أن يتخذ الها ، ذلك بأن جميع حاجات المرء التي تتعلق بالاله أو التي يضطر المرء لأجلها ان يتخذ احدا الها له ، لا يمكن قضاء شيء منها من دون وجود السلطة . ولذلك لا معنى لالوهية من لا سلطة له ، فان ذلك ايضا مخالف للحقيقة ، ومن النفخ في الرماد أن يرجع اليه المرء ويرجو منه شيئا »(٢) .

---

(١) « المصطلحات الأربعة في القرآن » ص ٢٣.
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٨ ـ ٢٩.

ويقول فى سياق الشرح « للرب » و « الربوبية » :

« فبقراءة هـــذه الآيات بالترتيب الذى سردناها به ، يتبين للقارىء ان القرآن يجعل (الربوبية) مترادفة مع الحاكمية والملكية (Sovereignty) »(١) .

انه يصرح بأن حقيقة الرب هى السلطة العليا ، والعبـــادة والعبودية عبارة عن طاعة هذه السلطة وامتثال أمرها والاذعان التام لها ، والنبى هو النائب والممثل عن هذا الســـلطان الأعلى ، ويجب ان يطيعه الناس بوصفه هذا وحده ، والبشر كرعية مالك الملك ، الذين يجب عليهم ان يخلصوا له العبادة والعبودية والخضوع والاذعان . يقول فى صميم الأسلوب السياسى فى معرض التفسير لوصية سيدنا عيسى ـــ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـــ المتمثلة فى هذه الآية « ان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » من سورة آل عمران :

« يظهر من هذا ان دعوة عيسى عليه الصلاة والسلام كانت تعتمد على ثلاثة اصول ، مثلها مثل دعوة الأنبياء طرا .

الأول : التسليم بأن الله وحده السلطة العليا التى يختار المرء سبيل « العبدية » امامها ، ويقوم على طاعتها كل النظام الاجتماعى والاخلاقى .

---

(١) نفس المصدر ، ص ٩٣ .

الثانى : طاعة أحكام النبى بوصفه نائبا ممثلا عن هذا السلطان الأعلى .

الثالث : أن القانون الذى يضع حدود وقيود التحريم والتحليل هو قانون الله فحسب ، أما قوانين الآخرين المفروضة فرضا ، فباطلة مردودة .

فليس من فرق اذن — ولو قيد شعرة — بين مهمة ودعوة سيدنا عيسى وسيدنا موسى وسيدنا محمد وغيرهم من الانبياء عليهم اجمعين السلام ، ويخطىء من يقر لكل واحد منهم بمهمة ودعوة مختلفة باختلاف شخصه ، ويفرق بينهم فى الغرض والنوع .

ان من يأمره مالك الملك بالذهاب الى رعيته لدعوتهم لا يمكن أن يكون الغرض من مجيئه شيئا آخر سوى منعهم من العصيان والتحرر والاستقلال المطلق وكفهم عن الشرك (يعنى أن يشركوا آخرين مع مالك الملك فى السلطة العليا بأى شكل من الأشكال) ودعوتهم الى الاذعان التام والعبودية الخالصة والطاعة والعبادة للمالك الأصلى »(١) .

---

(١) « تفهيم القرآن » الجزء الأول (تعريب أحمد ادريس) ص : ٢١٧ ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م ، توزيع : دار القلم — الكويت .

ويقرر فى معرض الحديث عن السلطة والحاكمية واتحادهما أن اعتقاد امر كائن من دون الله واجب الاطاعة ، والشرك مع الله ، شيء واحد لا فرق بينما ، يقول :

« والحكم والسلطة لا يقبل شيء منهما التجزئة والتقسيم البتة ، فالذى يعتقد أن أمر كائن ما من دون الله مما يجب اطاعته والاذعان له بغير سلطان من عند الله ، فانه يأتى من الشرك بمثل ما يأتى به الذى يدعو غير الله ويسأله ، وكذلك الذى يدعى انه مالك الملك والمسيطر القاهر ، والحاكم المطلق بالمعانى السياسية ، فان دعواه هذه كدعوى الالوهية ممن ينادى بالناس « انى وليكم وكفيلكم وحاميكم وناصركم » ويريد بكل ذلك المعانى الخارجة عن نطاق السنن الطبيعية ، الم تر انه بينما جاء فى القرآن ان الله تعالى لا شريك له فى الخلق وتقدير الأشياء وتدبير نظام العالم ، جاء معه أن الله له الحكم وله الملك ليس له شريك فى الملك ، مما يدل دلالة واضحة على أن الألوهية تشتمل على معانى الحكم والملك ايضا ، وانه مما يستلزمه توحيد الاله الا يشرك بالله تعالى فى هذه المعانى كذلك »(١) .

---

(١) المصطلحات الاربعة فى القرآن ، ص ٣١ ــ ٣٢ .

التصريحات المماثلة لدى سيد قطب :

وقد اعجب الكاتب الاسلامى الكبير الاستاذ سيد قطبه الشهيد ـ وهو صديق المؤلف العزيز ـ اعجابا شديدا بكتاب الأستاذ المودودى « المصطلحات الأربعة فى القرآن » ووافقه كل الموافقة فى الآراء والأفكار التى يتضمنها ، وقد جعل «الحاكمية» اخص خصائص الالوهية ، وكتاباته تقلل من شناعة عبادة الأصنام والأوثان وعبادة غير الله فى الجاهلية ، لأنه يعتبرها صورة ساذجة بدائية للجاهلية الأولى . يقول فى كتابه الشهير « معالم فى الطريق » :

« هذه الجاهلية تقوم على اساس الاعتداء على سلطان الله فى الارض وعلى اخص خصائص الالوهية .. وهى الحاكمية .. انها تسند الحاكمية الى البشر ، فتجعل بعضهم لبعض أربابا ، لا فى الصورة البدائية الساذجة التى عرفتها الجاهلية الأولى ، ولكن فى صورة ادعاء حق وضع التصورات والقيم ، والشرائع والقوانين ، والانظمة والأوضاع ، بمعزل عن منهج الله ، وفيما لم يأذن به الله .. »(١) .

---

(١) « معالم فى الطريق » ، ص : ٩ ، طبع وتوزيع : دار دمشق .

انه يعبر عن الاخذ بالقـــوانين الموضـــوعة على يد البشر ، والخضوع لحكم البشر ، وقبول التشريع غير الالهى،بـــ «العبادة»، يقول فى نفس الكتاب فيما بعد هذه السطور المذكورة اعلاه :

« فالناس فى كل نظام غير النظام الاسلامى يعبد بعضـــهم بعضا ـــ فى صورة من الصور ـــ وفى المنهج الاسلامى وحده يتحرر الناس جميعا من عبادة بعضهم لبعض ، بعبادة الله وحده ، والتلقى من الله وحده ، والخضوع لله وحده »(١) .

ويقول وهو يتحدث عن العرب الذين خاطبهم القرآن مباشرة:

« كانوا يعرفون أن الألوهية تعنى الحاكمية العليا . وكانوا يعرفون أن توحيد الألوهية وافراد الله ـــ سبحانه ـــ بها ، معنـــاه نزع السلطان الذى يزاوله الكهـــان ومشـــيخة القبائل والأمراء والحكام ، ورده كله الى الله .. »(٢) .

ويقول فى صراحة اكثر وعبارة أوضح :

« كانوا يعلمون أن « لااله الا الله » ثورة على الســـلطان الأرضى الـــذى يغتصب أولى خصائص الألوهيـــة ، وثورة على

---

(١) نفس المصدر . ص ٩ ـــ ١٠ .
(٢) ص : ٢٨ .

الاوضاع التى تقوم على قاعدة من هذا الاغتصاب ، وخروج على السلطات التى تحكم بشريعة من عندها لم يأذن بها الله .. »(١) .

ويتناول كلمة « لااله الا الله » بالشرح والايضاح ، فيقول :

« لااله الا الله ـــ كما يدركها العربى العارف بمدلولات لغته ـــ : لا حاكمية الا لله ، ولا شريعة الا من الله ، ولا سلطان لأحد على أحد ، لأن السلطان كله لله . »(٢) .

ولا يفهم هو من « لااله الا الله » الا رد الحاكمية فى كل الامور الى الله وافراده بهذه الحاكمية .. يقول فى موضع من هذا الكتاب ـــ وهو يوصى أصحاب الدعوة الاسلامية بأن يعرفوا أولئك الذين يدعون انفسهم مسلمين أو تشهد لهم شهادات الميلاد بأنهم مسلمون ، بالاسلام الحقيقى ـــ :

يجب أن يعلموهم ان الاسلام هو ـــ أولا ـــ اقرار عقيدة « لااله الا الله » بمدلولها الحقيقى ، وهو رد الحاكمية لله فى أمرهم كله ، وطرد المعتدين على سلطان الله بادعاء هذا الحق لانفسهم »(٣) .

---

(١) ص ٢٨
(٢) نفس المصدر : ٣١ .
(٣) نفس المصدر ص : ٤٦ .

ويقول فى موضع آخر :

« ان اعلان ربوبية الله وحده للعـــالمين ، معناها : الثـــورة الشـاملة على حاكمية البشر فى كل صورها واشكالها وانظمتهـــا واوضاعها ، والتمرد الكامل على كل وضـــع فى ارجاء الأرض ، الحكم فيه للبشر فى صورة من الصور .. أو بتعبير آخر مرادف : الالوهية فيه للبشر فى صورة من الصور »(١) .

ومن يجعل « الحاكمية » اخص خصـــائص « الالوهيـــة » وفكرتها المركزية ، فانه يعتبر ـــ طبيعيا ـــ التحاكم الى قانون من القوانين البشرية ، فى أى شأن من شؤون الحياة ، مخالفة للدين، واشراكا فى الحاكمية ـــ الذى يرادف عند هؤلاء السادة الاشراك فى الالوهية أو الربوبية .

ويقول سيد قطب الشهيد ـــ رحمه الله ـــ فى كتـــابه « فى ظلال القرآن » بمناسبة الكلام على الآية « ذلك الدين القيم » من سورة يوسف :

« وهذا وحده هو الدين القيم ، فـــلا دين ـــ اذن ـــ لله ما لم تكن دينونة الناس لله وحده ، وما يكن الحكم لله وحـــده ، ولا عبادة لله اذا دان الناس لغير الله فى شأن واحد من شؤون

---

(١) المصدر السابق ص : ٨١ .

الحياة ، فتوحيد الالوهية يقتضى توحيد الربوبية ، والربوبية تتمثل في أن يكون الحكم لله ، أو ان تكون العبادة لله ، فهما مترادفان أو متلازمان ، والعبادة التى يعتبر بها الناس مسلمين او غير مسلمين ، هى الدينونة والخضوع والاتباع لحكم الله دون سواه » (١) .

ويستنتج من ذلك فى السطور الآتية قائلا :

« فهذا الاعتبار يعد من المعلوم من الدين بالضرورة ، من دان لغير الله ، وحكم فى اى أمر من أمور حياته غير الله فليس من المسلمين ، وليس فى هذا الدين ، ومن افرد الله سبحانه بالحاكمية ورفض الدينونة لغيره من خلائقه ، فهو من المسلمين وفى هذا الدين » (٢) .

ويقول فى عبارة صريحة لا تقبل تاويلا ولا تدع مجالا للنقاش — وهو يتحدث عن الهدف الاساسى الجذرى الذى استهدفته الدعوة النبوية على مدار التاريخ البشرى : —

« ولم يكن الناس — فيما عدا افرادا معدودة فى فترات قصيرة — ينكرون مبدأ الالوهية ويجحدون وجود الله البتة ، انما هم كانوا يخطئون معرفة حقيقة ربهم الحق ، أو يشركون مع

---

(١) (٢) « فى ظلال القرآن » الجزء ١٢ . ص ٢٠٠ .

الله آلهة اخرى ... اما فى صورة الاعتقاد والعبادة ، واما فى صورة الحاكميـة والاتبـاع ، وكلاهمـا شرك كالآخر يخـرج به الناس من دين الله » (١) .

تفنيد مقالاة والرد عليهـا :

يبدو انه ظهرت فى مصر فئة تأثرت بهذه الكتـابات وتطرفت فى التمسك بهـذه الفكرة ، والتفسـير العصرى للدين ، والعمل بمقتضاه ، بما اضطر المرحوم الأستاذ الهضيبى الى نقدها ، والحد من شدتها ، ووضع الأمور فى نصابها ، ويقول فى كتابه المشار اليه فى الصفحات الماضية ـ بعد ما سرد تفسير الأستاذ المودودى لفكرته « حاكمية الاله » :

وقد توهم البعض ان قائل تلك المقالة يرى استحالة أن يأذن الله تعالى للنـاس أن يضـعوا لأنفسهم بعض التنظيمـات او التشريعات التى تنظم جانبا من شؤون حياتهم (٢) » .

ثم يقول الأستاذ الهضيبى وهو يصرح باستبعاد أن يكون الأستاذ المودودى قد رأى هذا الرأى وفكر هذا التفكير :

« والحق ان الله عز وجل قد ترك لنـا كثيرا من أمور

---

(١) « معالم فى الطريق » ص ٢١ .
(٢) « دعاء لا قضاة » ص : ٧٢ .

دنيانا ، ننظمها حسبما تهدينا اليه عقولنا فى اطار مقاصد عامة ، وغايات حددها لنا سبحانه وتعالى وأمرنا بتحقيقها ، وبشرط أن لا نحل حراما أو نحرم حلالا ، ذلك أن الأفعال فى الشريعة اما فرض أو حرام أو مباح .

والفرض : الذى فرضه الله علينا واجب لا يملك انسان أن يقرر عدم وجوبه أو يقبل منه ، وفاعل ذلك بعد أن بلغه الحق وقامت عليه الحجة ، جاحد للنص مكذب لربه تعالى ، فهو كافر مشرك بلا جدال .

وما حرمه الله تعالى : حرام الى يوم القيامة لا يملك أحد أن يحله وفاعل ذلك بعد بلوغ الحق اليه وقيام الحجة عليه ، جاحد للنص ، مكذب لربه ، فهو كافر مشرك بلا جدال .

أما المباحات : فان للمسلمين أن يسنوا فيها من الأنظمة — التى قد تتخذ شكل قرار أو لائحة أو قانون — ما تقتضيه الحاجة تنفيذا لنصوص وردت بضرورة تحقيق مقاصد عامة ، ومن هذا القبيل قوانين تنظيم الشورى التى أمر الله تعالى بها « وأمرهم شورى بينهم » (١) و « شاورهم فى الأمر » (٢) وأيضا قوانين تنظيم المرور فى الشوارع العامة وقوانين الوقاية الصحية ،

---

(١) سورة الشورى : ٣٨ . (٢) سورة آل عمران : ١٥٩

وقوانين مقاومة الآفات الزراعية وتنظيم استعمال مياه الرى ، وقوانين التعسليم ، وقوانين تنظيم المهن المختلفة ، كالطب والهندسة والصيدلة وتحديد الشروط التى يجب أن تتوافر فيمن يزاولها ، وقوانين تنظيم الادارات والمصالح وتحديد اختصاصاتها وسلطات كل منها ، وتنظيم الجيش وتحديد الشروط التى يجب توافرها فيمن يلحق به وفى ضباطه ، وصف ضباطه ، وقوانين شروط بناء المساكن بما يحقق سلامتها وتوافر الشروط الصحية فيها ، والقوانين المتعلقة بالشروط اللازم توافرها فى المصانع المختلفة ، كل على حسب طبيعة العمل فيها ، وقوانين تنظيم المحال العامة .. الخ .

ولنضرب مثلا بقوانين تنظيم المرور فى الشوارع العامة ، فان الحديث الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يقول فيه : « ان دماءكم واموالكم واعراضكم وابشاركم عليكم حرام » والحديث الثابت عنه عليه الصلاة والسلام الذى يقول فيه : « المسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » قد فهمنا منهما وجوب المحافظة على دمائنا وابشارنا واعراضنا ، والا يسلم احدنا الآخر لما فيه هلاكه او الاضرار به ، ووجدنا اننا لو تركنا امر السير فى الطرقات العامة بالمركبات والسيارات والدراجات وغيرها من وسائل النقل من غير تنظيم وقواعد يلتزم بها الكل ، ونكفل سلامة

الأموال والابدان ، فاننا نكون قد عرضنا دماء الناس وأبشارهم وأموالهم للاهدار ، وأسلمناهم بذلك لما فيه هلاكهم والاضرار المحقق بهم ..

ولا يجوز لأحد ان يزعم ان تشريعات تنظيم المرور فى هذه الحالة من تشريع الله تعالى عز وجل ، انما هى من تشريعنا واجتهادنا تنفيذا لمقصد عام أمرنا الله به ، وهى تشريعات وقوانين تتبدل وتتغير حسبما تقتضيه الحاجة بتغير وسائل المواصلات » (١) .

ثم يقول :

« وفى هذا كفاية لابطال قول من زعم ان « التشريع صفة من صفات الله عز وجل ، وان من وضع تشريعا فقد انتزع لنفسه احدى صفات الله عز وجل ، وجعل نفسه ندا لله تعالى خارجا على سلطانه »(٢) .

ويلوح ان الأمر قد تجاوز حده وتفاقم شره ، وأصبح الناس يعتبرون المسلمين الذين اتبعوا اى قانون بشرى من أى نوع كان ، مارقين من الدين ، وأصبح هناك اناس ينادون بأن المسلمين المعاصرين يعيشون فى جاهلية وكفر ، وان عقائدهم باطلة لانهم

---

(١) دعاة لا قضاة : ٧٣ ــ ٧٤ .
(٢) ص : ٧٤ من نفس المصدر .

الى العقيدة الاسلامية بصلة ما ، لانهم جـاهلون لمعظم القوانين الالهية التى تنظم حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعيـة . وان اكثريتهم اصبحت تعتقد ان احكام الشريعة الالهية محصورة فى نطاق العبادات ... يقول الاستاذ الهضيبى مفندا لهذا الراى الخاطىء :

« اعتقاد عامة الناس ان لاولى الامر حق اصدار القوانين ووضع التنظيمات التى تنظم جوانب من حياتهم السـياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بناء على نصـوص من القرآن الكريم والسنة الشريفة ، اعتقاد ليس فيه ايضا شبهة الكفر والشرك بل هو اعتقاد فى اصله حق »(١) .

هل الصلة بين العبد والرب هى صلة الحاكم والمحكوم فحسب ؟ :

ونقف هنا وقفة قصيرة ونستعرض ما تدل عليه دراسـة كتاب الاستاذ المودودى « المصطلحـات الاربعـة فى القرآن » والشىء الكثير من كتاباته ، من ان الصلة بين الله والانسـان ، والعبد والرب ، هى فى الواقع صلة الحاكم والمحكوم ، وصـلة الرعية والملك ، وان صفة «السلطة العليا» و «الحاكمية المطلقة» هى الاصل من بين اسماء الله الحسنى وصفاته السامية الكثيرة ،

---

(١) نفس المصدر ، ص : ٧٩ .

وكان الدعوة الى الايمان بحاكمية الاله والاذعان لسلطته العليا وصوغ الحياة فى قالب متطلباتها ، كان هدف النبوة الاساسى ، ومقصد بعثة الانبياء واساس دعوتهم ، وغاية نزول الكتب والصحف السماوية كلها .

ومهما كان ذلك نتيجة لازمة للايمان بالله والدخول فى حظيرة الاسلام ، ومهما كانت طبيعة الاسلام تقتضيه اقتضاءا طبيعيا ، فانه جزء صغير بالنسبة الى صفات الله وذاته ، وصلته بعباده وصلة عباده بنفسه ، وليس هو كل شىء كما يظنه هؤلاء السادة . والواقع ان صلة الخالق والمخلوق والعبد والمعبود هى اشمل واوسع ، واعمق وادق ، بكثير وكثير من صلة الحاكم والمحكوم ، والآمر والمأمور ، والسلطان والرعية ، وقد لهج القرآن الكريم بذكر اسماء الله وصفاته فى بسط وتفصيل واسلوب شيق جميل ، لا يدلان ابدا على ان المطلوب من العبد هو الايمان بمجرد حاكميته المطلقة والاذعان لسلطته العليا ، وان لا يشرك آخرين معه فى سلطته ، اقرأ على سبيل المثال الآيات التالية من أواخر سورة الحشر :

« هو الله الذى لا اله الا هو ، عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذى لا اله الا هو ، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون ،

هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السماوات والأرض ، وهو العزيز الحكيم » (١) .

مقتضى الأسماء والصفات والأفعال الالهية :

ان هذه الأسماء والصفات والأفعال الالهية — التى زخر القرآن الكريم بذكرها — تتطلب فى صراحة ، أن يحب العبد الهه وربه بقلبه وقالبه ، وأن يتفانى فى طلب رضاه ، وأن يتغنى بمجده ويسبح بحمده ، وأن يلهج بذكره تياما وقعودا ، وأن يكون ذلك هو شغله الشاغل وهمه الوحيد ، وأن يظل خائفا منه ، فزعا من بطشه وقهره ، وجلا من غضبه وسطوته ، ملتجئا اليه فى كل حال ، مادا اليه يد السؤال ، متضرعا اليه بالحاح واقبال ، متطلعا الى جماله الذى هو مصدر الحسن والاحسان ومنتهى الفضل والكمال ، تملكه عاطفة البذل فى سبيله بكل ما عنده من نفس ونفيس ، وغال ورخيص .

والذين حصروا صفات الله وحقوقه ، فى حق الحاكمية والسلطة العليا وحده وراوه اصل الحقوق الالهية ، واول المطالب الربانية ، اخاف ان يكون قد صدق عليهم قول الرب تبارك وتعالى : « وما قدروا الله حق قدره » ... ان القرآن الكريم قد استخدم التفصيل والتوسع فى ذكر الصفات واثباتها ، بالعكس

---

(١) سورة الحشر : ٢٢ — ٢٤ .

من الفلسفات القديمة التى استخدمت التفصيل والتدقيق فى نفى الصفات ، واذا كان لابد من ذكرها لجأت الى الاجمال والايجاز ، يقول شيخ الاسلام ابن تيميه : « ان اسلوب القرآن المجيد هو النفى المجمل والاثبات المفصل »(١) ... انه اكتفى فى النفى بقوله القاطع « ليس كمثله شيء » أما فى الاثبات فيختار ذلك الاسلوب التفصيلى العجيب الذى مر مثاله مقتبسا من سورة الحشر ، وذلك لأن الحب العميق والانجذاب الكامل ، والعشق المتيم ، لا يتأتى بدون الاطلاع على الصفات اطلاعا دقيقا ، والاحاطة بها احاطة شاملة ، وتنطلى مظاهر هذه الصفات فى حياة الانبياء واعمالهم وسيرتهم وسلوكهم ، ولا سيما فى أعمال سيد الانبياء وخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، وتعاليمه وتربيته ، وفى كيفية صلاته وقيامه ، وفى دعائه والتجائه ، وابتهاله وتضرعه ، وانابته واخباته ، وحبه وحنينه ، وتشوقه لذات الله ، وامعانه فى الذكر والعبادة ، والاستراحة اليهما ، والتذوق والتحلى بهما . كما تتجلى فى حياة صحابته الكرام واتباعهم العظام ، والبررة والصالحين والعلماء الربانيين فى الأمة .

وكان ذلك كله ناشئا من انهم لم يكونوا يؤمنون بالله كالحاكم الاعلى والسلطان الاعلم فحسب ، بل كانوا يرونه ــ بجانب كونه

---

(١) راجع كتاب النبوءات لابن تيمية .

معبودا وربا ـــ محبوبا حقيقيا ، وموضع الحب الاصيل ، ومنتهى الجلال والجمال ، والفضل والكمال .

تعريف « العبودية » و « الاله »

لدى شيخ الاسلام ابن تيمية :

وهذا شيخ الاسلام ابن تيمية ـــ وهو فى مكانته من الفهم لروح الاسلام ، والتضلع من علوم الكتاب والسنة ، والبعد عن كل ما أحدث فى القرون الاخيرة ـــ لا يرى الطاعة والنذلل وحدهما يوفيان حق العبودية التى هى حق الاله والرب ، تلك الطاعة والتذلل اللذان يمارسهما الانسان لمن يعتقد فى سلطته العليا وحاكميته المطلقة ، ويرضى بهما ذلك الحاكم الأعلى بدوره ايضا ... بل يشترط للعبودية بالاضافة الى الخضوع والتذلل ، غاية الحب التى تتطلب ـــ بجانب الحاكمية والسلطة ـــ صفات وفضائل تجعل السلطان الاعلى والحاكم على الاطلاق يستحق أن يكون موضع غاية الحب فى نظر « العبد » و « العابد » . يقول فى رسالته الشهيرة « العبودية » :

« لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهى تتضمن غاية الذل لله تعالى ، بغاية المحبة له » (١) .

---

(١) « العبودية » لشيخ الاسلام ابن تيمية ، طبع وتوزيع : المكتب الاسلامى ١٩٦٣ م ، ص : ٦.

ويقول :

« من خضع لانسان مع بغضه له لا يكون عابدا له ، ولو أحب شيئا ولم يخضع له ، لم يكن عابدا له ، كما قد يحب الرجل ولده وصديقه ، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى ، بل يجب أن يكون الله أحب الى العبد من كل شيء وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء » (١) .

ولا يكتفي بهذا القدر ، بل يقول وهو يشرح « الاله » ويشير الى اشتقاقه :

« الاله هو الذي يألهه القلب بكمال الحب والتعظيم ، والاجلال والاكرام ، والخوف والرجاء ، ونحو ذلك » (٢) .

وتدل عبارته الأخرى دلالة صريحة على أن الصلة بين العبد والمعبود ليست هي صلة الحاكم والمحكوم وحدها بل الأولى أوسع من الثانية بدرجات كثيرة ، وأجمع وأشمل ، فهي تشمل المعرفة والانابة والمحبة والاخلاص والذكر ، وما الى ذلك ، على حين يكفي للحاكم مجرد الخضوع والتذلل ، والطاعة والانقياد .

يقول :

---

(١) نفس المصدر ، ص ٧ - (٢) المصدر نفسه ، ص : ١٣

« ان الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته ، والانابة اليه ومحبته ، والاخلاص له ، فبذكره تطمئن قلوبهم ، وبرؤيتـــه فى الآخرة تقر عيونهم ، ولا شيء يعطيهم فى الآخرة احب اليهم من النظر اليـــه ولا شيء يعطيهم فى الدنيـــا اعظم من الايمـــان بـــه » (١) .

ويقول وهو يتحدث عن هذه العبادة :

« ولا صلاح لهم ولا فلاح ، ولا نعيم ولا لـــذة ، بدون ذلك بحال ، بل من اعرض عن ذكر ربه ، فان لـــه معيشة ضـــنكا ونحشره يوم القيامة اعمى » (٢) .

ما اعظم الفرق واعمقـــه بين تعريف الاله هـــذا ، وبين التعريف الذى يجعل الحاكمية والسلطة العليا ـــ التى ترجمهـــا الاستاذ المودودى نفسه بـــ (Sovereign) ـــ ملاك الامر فى باب الالوهية ، واذن فمن الواضح أن هذا « الالـــه الرسمى » لا يحتاج الانسان بصدده الى الحب ولا الاكثار من الذكر ، بـــل يكفيه مجرد الطاعة الكاملة والولاء والاخلاص (Loyalty)

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام احمد بن تيمية ، ج ١ ، ص ٢٣ طبع ١٣٨١ هـ

(٢) نفس المصدر ، ص ١٣ .

الدعوة الى التوحيد واستئصال شافة الشرك ، كانا هـدف بعثة الانبياء وتعليمهم ودعوتهم الاساسى عبر التاريخ البشرى :

يقول الأستاذ المودودى ـــ وهو يقرر أن الحـكم والسلطة لا يقبل شيء منهما التجزئة والتقسيم : ـــ

« فالذى يعتقد ان امر كائن ما من دون الله مما يجب اطاعته والاذعان له ، بغير سلطان من عنـد الله ، فانه يأتى من الشرك بمثل ما يأتى به الذى يدعو غير الله ويسأله وكذلك الذى يـدعى انه مالك الملك والمسيطر القاهر ، والحاكم المطلق بالمعـانى السياسية ، فان دعواه هذه كدعوى الألوهية ممن ينادى بالناس : « انى وليكم وكفيلكم وحاميكم وناصركم » ويريد بكل ذلك المعانى الخارجة عن نطاق السنن الطبيعية » (١) .

ان هذه العبارة تنم عن أن الاشراك فى الحكم ، والاشراك فى الالوهية او العبادة ، يتساويان ولا يتفاضلان ، بل انهما شيء واحد ، وان طاعة احد والخضوع لحكمه بالمعانى السياسية شرك ، كشرك من يعبد احدا غير الله (فى دائرة ما بعد الطبيعة) ويتقـدم اليه بالدعاء ، ويتقرب اليه بالنذر والذبح ، والخوف والرجاء ... .

---

(١) « المصطلحات الأربعة فى القرآن » ص ٣١ ـــ ٣٢ .

ويبدو أن الاستاذ المودودى لا يعنيه الا الدعوة الى الطاعة السياسية لأحد ، والخضوع لسلطانه ، والاذعان لحاكميته ، ورد حق التشريع اليه ، وعلى ذلك تتركز جهوده الكتابية ومحاولاته القلمية ، ومن يقصر مطالعته على هذه المقالات والكتابات وحدها ، ويعيش فيها ويتنفس فى جوها ، ويتغذى بها عقليا وفكريا ، تتأكد فى نفسه اولية الاشراك فى الحكم واهميته طبيعيا وتتضاءل عنده ثناعة الاشراك فى العبادة — اذا لم يكن له نصيب من تعليم دينى قائم على اساس الكتاب والسنة ولم تفعل فيه العوامل والمؤثرات الثقافية والتربوية الأخرى — والاعتقاد فى أحد (فى دائرة ما بعد الطبيعة) بأنه موضع العبادة والاستعانة ، والتضرع والدعاء ، والسجود والخضوع ، وما الى ذلك من مظاهر غاية التعظيم والتقديس ، أو يرى أن ذلك كله من خصائص الجاهلية القديمة البدائية حيث كان العقل البشرى فى مرحلة الطفولة ، وكان العلم والثقافة والمدنية لا تزال فى المراحل الأولى، واما الآن وقد تقدم الزمان ، فان تركيز العناية عليه ، والتصدى لمقاومته ومحاربته ، معناه اضاعة الوقت والجهد ، وجهاد فى غير جهاد ، وانصراف عن الأهم الى غير الأهم .

وبالعكس من ذلك نرى أن الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، كان أول دعوتهم واكبر هدفهم فى كل زمان ومكان وفى كل بيئة هو تصحيح العقيدة فى الله تعالى ، وتصحيح الصلة بين العبد وربه ،

والدعوة الى اخلاص الدين وافراد العبادة لله وحده ، وانه النافع الضار المستحق للعبادة والدعاء والالتجاء والنسك وحده ، وكانت حملتهم مركزة موجهة الى الوثنية القائمة فى عصورهم ، الممثلة بصورة واضحة فى عبادة الأوثان والأصنام والصالحين المقدسين من الأحياء والأموات ، الذين كان يعتقد اهل الجاهلية « ان الله قد خلع عليهم لباس الشرف والتأله ، وجعلهم متصرفين فى بعض الأمور الخاصة ، ويقبل شفاعتهم فيهم بالاطلاق ، بمنزلة ملك الملوك يبعث على كل قطر ملكا ويقلده تدبير تلك المملكة فى ما عدا الامور العظام(١) » .

وكل من له صلة بالقرآن — وهو الكتاب المهيمن على الكتب السالفة — يعرف اضطرارا وبداهة أن القضاء على هذه الوثنية ، والانكار عليهـــا ومحاربتها ، وانقـــاذ النـــاس من براثنها كان هدف النبوة الأساســى ، ومقصـــد بعثة الانبياء ، واساس دعوتهم ومنتهى أعمالهم ، وغاية جهادهـــم ، وقطب الرحـــى فى حياتهم ودعوتهم ، حولهـــا يدندنون ، ومنها يصدرون ، واليهـــا يرجعون ، ومنهـــا يبدأون واليهـــا ينتهون ، والقرآن تارة يقـــول باجمال « وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه انه لا اله

---

(١) التعبير مأخوذ من كتاب « حجة الله البالغة » للامام أحمد ابن عبد الرحيم ولى الله الدهلوى .

الا أنا فاعبدون »(١) ، وتارة يقول بالتفصيل فيسمى نبيا نبيا ، ويذكر أن افتتاح دعوتـه كان بهذه الدعـوة الى التوحيد(٢) .

وقد سمى القـرآن عبـادة الأوثان « الشرك الأكبـر » و « الرجس » و « قول الزور » وشنع عليه التشنيع الأعظم ، فقال فى سورة الحج : « ذلك ومن يعظم حـرمات الله فهو خـير له عند ربه ، وأحلت لكم الأنعـام الا ما يتـلى عليكم : فاجتنبوا الرجس من الأوثان ، واجتنبوا قـول الزور ، حنفـاء لله ، غير مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنمـا خر من السـماء فتخطفه الطير ، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق »(٣) .

أسوة الأنبياء وطبيعة النبوة :

وتلك هى طبيعة النبوة وطبيعة الدين الذى تجىء به النبوة . ان أكره شىء اليهما هى هذه الوثنية وعبادة الآلهة الكاذبة والأوثان والأصنام المنحوتة على يد البشر ، التى يسجد لها الناس ويتقربون اليها بالدعاء والتضرع والنذر والذبح ، ذلك الذى لا يجوز لغـير

---

(١) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .

(٢) اقرأ على سبيل المثال الآيات ٢٥ ، ٢٦ ، ٥٠ ، ٦١ ، ٨٤ من سورة هود .. والآيات ٥١ ، ٥٤ من سورة الأنبيـاء .. و ٦٩ ، ٨٢ من سورة الشعراء .. و ٤١ ، ٤٢ من سورة مريـم .. و ١٦ و ١٧ و ٢٥ من سورة العنكبوت .. و ٣٧ و ٤٠ من سورة يوسف .

(٣) ٣٠ ـــ ٣١ من سورة الحج .

الله ، ومن أجل ذلك حينما دخل النبى صلى الله عليه وسلم مكة فاتحا منتصرا يتمتع فيها بما لم يكن يتمتع به من ذى قبل ، من الكلمة النافذة والأمر المطاع والسلطة الكاملة ، صنع أول ما صنع انه دخل الكعبة التى كان فيها وفيما حولها ثلاث مائة وستون صنما فجعل يغمزها بقوس فى يده فتتساقط على وجوهها ، وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا »(١) « قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد »(٢) .

ولم يكتف بهذا القدر ، بل أرسل سراياه الى مواطن الأوثان حول الكعبة فحطمت كلها ، منها أمثال اللات والعزى ، ومناة الثالثة الاخرى ، التى كانت كبرى الأصنام المركزية فى الجاهلية ، كان يتوافد اليها الناس من الأنحاء يعبدونها ويسجدون لها ، ونادى مناديه بمكة « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع فى بيته صنما الا كسره » ، وبعث رجالا من أصحابه الى القبائل فهدموا أصنامها(٣) . ويقول جرير بن عبد الله البجلى رضى الله عنه : « كان بيت فى الجاهلية يقال له «ذو الخلصة»

---

(١) سورة بنى اسرائيل ، ٨١ .

(٢) سورة سبأ ٤٩ راجع صحيح البخارى » باب اين ركز النبى صلى الله عليه وسلم الراية يوم الفتح . واقرأ للتفصيل « زاد المعاد » ج ١ ص ٤٢٤ .

(٣) راجع للتفصيل زاد المعاد ج ١ ، ص ٤٣٩ .

و « الكعبة اليمانية » و « الكعبة الشامية » فقال لى النبى صلى الله عليه وسلم : ألا تريحنى من « ذى الخلصة » ؟ فنفرت فى مائة وخمسين راكبا فكسرناه وقتلنا من وجدنا عنده ، فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فأخبرته فدعا لنا ولـ « أحمس »(١) . وقد بلغ النبى صلى الله عليه وسلم من اهتمامه بشأن ازالة آثار الجاهلية وشعائر الوثنية ، الى أن بنى ثقيف لما ترجوه صلى الله عليه وسلم أن يبقى صنمهم القومى « اللات » لثلاث سنين ، والحوا على ذلك حتى تنازلوا الى سنتين ، فالى سنة ، فالى شهر ، أبى كل الاباء ، وانكر عليهم أشد الانكار ، وأرسل المغيرة بن شعبة وأبا سفيان ابن حرب فهدماه وبلغت به كراهيته للشرك وعبادة غير الله (فى دائرة ما بعد الطبيعة) الى أنه قال فيما قال فى مرض وفاته ولدى لحوقه بالرفيق الأعلى : « قاتل الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبياءهم مساجد »(٢) وتقول عائشة وابن عباس رضى الله عنهم « لما نزل(٣) برسول الله صلى الله عليه وسلم ، طفق يطرح خميصته على وجهه فاذا اغتم(٤) كشفها عن وجهه ، فقال وهو كذلك: « لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ـــ

---

(١) صحيح البخارى باب غزوة ذى الخلصة .
(٢) موطأ الامام مالك (٣) يعنى المرض .
(٤) احتبس نفسه من الخروج من أجل شدة الحر .

يحذر ما صنعوا(١) .

مما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان يرى الشرك واتخاذ شعائره ، أقدم أدواء الأمم والملل ، وكان يخاف أن تعود الوثنية ، وتدب فيها الحياة وتستأنف النشاط ، فحذر منها أمته ، ولم يفته أن يؤكد الانذار حتى فى هذا الموقف الدقيق وفى آخر عهده بالدنيا ، وأعرب عن اشد كراهيته ومقته لها ، وتأذيه بها ، وتألمه منها ، ومعنى ذلك أن الدنيا مهما تغيرت ، وأن الزمان مهما تقدم ، وأن الاسلام مهما قطع اشواطا بعيدة فى التقدم والانتشار والانطلاق ، فسيظل هذا الخطر قائما ، وعلى العلماء وأصحاب الدعوة الاسلامية والنائبين عن الأنبياء أن يأخذوا حذرهم واسلحتهم ، وان يعدوا لمقاومته عدتهم ، وأن لا تجدن الهوادة عندهم منفذا فيما يتصل بهذا الجانب .

لا تزال « اللات » و « مناة » غضتين وفى طور شبابهما :

ان هذه الوثنية والشرك ـ بمعنى التأله لغير الله ، وغاية التذلل له ، والسجود والدعاء والاستغاثة به ، والنذر والذبح له ـ هى الجاهلية العالمية التى هى اقدم أدواء البشر ومواضع ضعفه وسقطته ، وهى باقية مع البشر فى جميع مراحل حياته وتطوراتها،

---

(١) صحيح البخارى كتاب المغازى باب مرض النبى صلى الله عليه وسلم ووفاته .

وهى التى تثير غضب الله وغيرته ، وتحـول بين العبـد وتقدمه الروحى والخلقى والمدنى ، وتهبطه من أعلى الدرجات الى اسفل الدركات « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه اسفل سافلين »(١) تهبطه من درجة مسجود للملائكة الى درجة ساجد للضعيف من المخلوقات والخسيس من الموجودات .

انها هى الجاهلية التى تخنق القوى ، وتقتل المواهب ، وتقضى على الاعتماد على الله ، والاعتداد بالنفس والثقة بهـا ، وتصرف الانسان عن الالتجاء الى الله السميع البصير ، العـليم القـدير ، الجواد الوهاب ، الغفور الودود ، والاستفادة من صفاته التى لاتعد وخزائنه التى لا تنفد ، الى الالتجاء الى الضعيف الفقير ، العاجز الحقير ، الذى لا يملك شيئا ، « يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر ، كل يجرى لأجل مسمى ، ذلكم الله ربكم ، له الملك ، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ، ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير ، يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله ، والله هو الغنى الحميد »(٢) .

---

(١) الآيتان : ٤ ــ ٥ من سورة التين .
(٢) سورة فاطر ، الآيات : ١٣ ــ ١٤ ــ ١٥ .

موضوع جهاد الانبياء وجهودهم على مدار التاريخ البشرى :

هذه الوثنية ـــ فى دائرة ما بعد الطبيعة ـــ بجميع اشكالها الواضحة والدقيقة ، كانت موضوع جهاد الانبياء فى كل عصورهم وفى جميع بيئاتهم ومجتمعاتهم ، وهـــو الذى اثار غضب اهـــل الجاهلية ، فقالوا : « اجعل الآلهـــة الها واحـــدا ان هـــذا لشىء عجاب وانطلق الملأ منهم ان امشوا واصبروا على آلهتـــكم ، ان هذا لشىء يراد ، ما سمعنا بهذا فى الملة الآخـرة ان هـــذا الا اختلاق »(١) .

ومما لا يشك فيه عاقل درس تاريخ العصر النبوى ، واطلع على اخبار صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ان الصـــحابة لم يكونوا يفهمون من هذه الآيات التى سردناها الا هذه الوثنيـــة السافرة ، وعبادة الاصنام والاوثان ، وتقديس الاشخاص الماضين او الموجودين والسجود لهم ، والدعاء منهم ، والذبح والنذر لهم ، والحلف بأسمائهم ، والتقرب الى الله بعبادتهم ، والاعتمـــاد على شفاعتهم المطلقة التى لا ترد ، وطلب النفع والضر وكشف الكربه منهم ، وهذا هو المستفيض المتواتر من آثارهم واخبارهم ومناهج كلامهم ، لا يختلف فيه اثنان .

ولا يزال هذا هو الركن الاساسى فى الدعـــوات الدينيـــة وحركات الاصلاح الى يوم القيامة ، وهو تراث النبوة الخـــالد

---

(١) سورة ص ، الآيات : ٥ ـــ ٦ ـــ ٧ .

« وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعـــون »(١) . وشـــعار جميع الدعاة الى الله وجميع المصلحين المجاهدين .

اما مظاهر الجاهلية الاخرى كالطاعة لغير الله ، والتحاكم الى غير الله وقبول التشريع غير الالهى ، وتسليم حكومة لا تقوم عـــلى النيابة عن الله ، وعلى احكامه ، فكل ذلك يتبع هـــذه الوثنيـــة والشرك ويأتى بعده ، ولا يجوز أن يقلل من شأن هـــذا الشرك الجلى المتقدم ذكره ، واهميتـــه ، وأن يوضـــع فى الهـــامش من منهاج دعوة او جهاد ، او يساوى بينه وبين معانى الطاعة والحكم السياسية ، ويحكم عليها حكما واحدا ، او يعتقد انه من خصائص الجاهلية القديمة المحدودة المتخلفة التى ولى عصرها وانقضى دورها، لان ذلك لا يتفق مع الواقع المشاهد ، فلا تزال الوثنيـــة والشرك تقوم على قدم وساق بأشكالها وأنواعها القديمة ، وما يصـــنعه الجهلة من الناس من أعمال الشرك الجلى على ضرائح الأوليـــاء والصالحين فيه كفاية ومقنـــع ، فلم يتركوا شـــيئا من غوايات الجاهلية القديمة وضلالات الأمم الماضية ، وغلوهم فى تقـــديس غير الله وتعظيمه ، والسجود له ، والنـــذر والذبح له ، والدعاء والالتجـــاء اليه ، والخـــوف والرجاء منه ، والحيـــاء والتأدب معه ـــ الذى لا يستحقه الا الله ســـبحانه وتعـــالى ـــ الا أتوا به

---

(١) سورة الزخرف ، الآية ، ٢٨ .

جهارا وعلانية(١) ، لك أن تشاهده بأم عينيك هنا وهناك فى كل مكان .. ثم ان هذه النظرية ، نظرية ان مظاهر الشرك الجلى المتقدم ذكره ، من خصائص الجاهلية الأولى الساذجة ، اساءة الى دعوة الأنبياء وجهودهم ، وشك فى خلود القرآن ، وأنه هو الكتاب الأخير الدائم ، ولا شك فى ان منهاج النبوة هو المنهاج الصحيح الذى ارتضاه الله تعالى ، والذى كتب له من النجاح والتوفيق والانتاج والاثمار ما لم يكتب لأى منهاج من مناهج الاصلاح .

مكانة العبادات بعد التسليم بأن حقيقة الربوبية والألوهية هى السلطة والحاكمية :

واذا كان — عند الأستاذ المودودى — « اصل الألوهية وجوهرها هو السلطة »(٢) واذا كان « كل من الالوهية والسلطة تستلزم الاخرى وأنه لا فرق بينهما من حيث المعنى والروح »(٣) و « أن القرآن يجعل « الربوبية » مترادفة

---

(١) اقرأ على سبيل المثال كتب « الرد على البكرى » و «الرد على الأخنائى » لشيخ الاسلام ابن تيمية ، و « تقوية الايمان » للعلامة الشيخ اسماعيل الشهيد . وقد نقله الى العربية كاتب هذه السطور باسم « رسالة التوحيد » .

(٢) راجع « المصطلحات الاربعة فى القرآن » ص ٢٣ .

(٣) راجع نفس المصدر . ص ٢٩ .

للحاكمية والملكية (Sovereignty) »(١) فاذا لا يعود مفهوم « العبادة » ـ التى هى وظيفة العبد وحده ـ واصلها وحقيقتها ، الا الطاعة والانقياد والولاء والوفاء (Loyalty) .. وقد اخذت النقطة المركزية للربوبية والالوهية ، وفكرتهما الرئيسية واخص خصائصهما (السلطة) ، ومفهومهما الوحيد ، وحقيقتهما الأصيلة ، كلّ ماخذ من ذهنه ، حتى ضعف فيما يرى هو ـ او بتعبير أدق فيما تدل عليه كتاباته ـ شأن العبادات واعمالها ومظاهرها وشعائرها ، التى شرعتها الشريعة ، ودعا اليها الدين ، واحبها النبى حبا يفوق الوصف ، وجاءت عشرات من الآيات القرآنية ومئات من الاحاديث النبوية ، ترغب فيها ، وتنوه بشأنها ، وتشيد بذكر فضائلها ، وتحرض على التنافس فيها ، وتثنى على المكثرين منها والمعنيين بها ، وتندد بالراغبين عنها او المقصرين فيها .. وطبعا بدت له الشعائر التعبدية فى درجة ثانوية ، وبدا له الانهماك والتوغل فيها والمداومة عليها ، نتيجة الجهل لروح الدين ورمز عهد الانحطاط ، واخذت فكرته ودعوته هذه شدتها وحدتها حتى جعلت اسلوبه الكتابى يتسم ـ لدى الحديث عن الفكرة المركزية للعبادات وروحها وجوهرها ، التى لا يتجاسر أحد من أهل العلم ان ينكر اهميتها فى حد ذاتها ـ

---

(١) انظر المصدر السابق . ص ٩٣ .

بما يشبه الاستخفاف بتلك العبـــادات المشروعة ، والاكثـــار من الصلاة والذكر ، وهنالك يتحول اسلوبه عن اســـلوبه الكتـــابى الهادىء ، الى الأسلوب الانشائى الهادر .

يقول ـــ وهو يتحدث عن عناصر العبادة (الولاء للسيد ، والطاعة له ، وتعظيمه) ويقرر أن هذه الأمور الثـــلاثة هى التى عبر عنها الله سبحانه بكلمة « العبادة » الجامعة ـــ :

« استحضر فى ذاكرتك هذا المعنى « للعبـــادة » ثم أجب على تساؤلاتى الآتية :

ما رأيك فى الخادم(١) الذى بدل أن يذهب فيقوم بالوظيفـــة التى اسندها اليه سيده ، يظل قائما أمامه واضعا احدى يديه فوق الأخرى ، يتلو اسمه ملايين المرات ؟ يقـــول له ســـيده : اذهب فأد حق فلان وفلان ، لكنه لا يبـــرح مكانه ويســـلم على ســـيده عشر تسليمات راكعا خاضعا ، ويستوى قائما يضـــع احدى يديه فوق الأخرى ، ويأمـــره سيده قائلا : اذهب فاقض على هـــاتى المفاسد ، لكنه لا يتحرك من مكانه قيد بوصـــة ، ويســـجد لسيده

---

(١) وكلمة «الخادم» تدل على ان الاستاذ المردودى لا يرى الصلة بين العبد والمعبود والانسان والاله ، تختلف عن الصلة بين الحاكم والمحكوم . ولا فوق الصـــلة بين السيد والخـــادم والآمر والمأمور . فهو يقول فى صريح العبارة : « ومن يصنع هذا الصنيع من خدم الاله تحسبه انت عبادا ! » .

مرة بعد اخرى ، يقول له سيده : اقطع يد السارق ، فيظل قائما ويكرر عشر مرات بصوت جميل : اقطع يد السارق ، اقطع يد السارق ، لكنه لا يتحرك ليقوم ولو مرة واحدة بمحاولة لاقامة نظام الحكم الذى يسمح بقطع يد السارق . افهل تقول : ان الرجل يعبد سيده فى معنى الكلمة ؟ ! وانى لاعلم ما ستقوله لخادم لك وقف هذا الموقف ، ولكن يالله من عجب منك .. من يصنع من خدم الاله هذا الصنيع تحسبه انت عبادا ، الله اعلم كم مرة يقرأ هذا المسكين احكام الله فى القرآن الكريم منذ الصباح الى المساء ، لكنه لا ينشط من مكانه لتحقيق تلك الأحكام ، بل يستمر يصلى النفل بعد النفل ، ويسبح باسم الله على سبحة ذات الف حبة ، ويلحن فى تلاوة القرآن ، وانت ترى صنيعه هذا ، فتقول : ما اعبده وما ازهده ! وانما وقعت فريسة هذا الفهم الخاطىء لانك لا تدرى المعنى الحقيقى للعبادة »(١) .

ومن الم بمحاولات الاصلاح والدعوة ـ التى لا تزال مستمرة منذ اليوم الأول حتى يوم الناس هذا ـ وقرأ كتابات العلماء الراسخين فى العلم وفى الدين ، أو استمع لخطباتهم ، يعلم انهم دائما دعوا الى العناية بجانب تربية الروح والحقيقة فى الصلاة

---

(١) « خطبات » ـ باللغة الأردية ـ الجزء الثالث ص ٦ ، ٧ توزيع المكتبة الاسلامية المركزية ، دهلى (الهند)

والذكر وسائر العبادات ، والى الأخذ - بجانب هذه العبادات - بجميع الأحكام الشرعية وتطبيقها فى الحياة ، والقيام بمحاولات تنفيذها فى المجتمع البشرى ، وقد وصفوا الحياة التى لا يوافق فيها الظاهر الباطن ، والجسم والروح ، بل يخالف فيها القول الفعل ، والظاهر الباطن ، بحياة النفاق ، وظل هؤلاء الاعلام منذ الامام الحسن البصرى رحمة الله عليه الى يومنا هذا ينبهون المسلمين ، ويدعونهم دعوة حثيثة الى هذه الحقيقة ، ويقولون لهم : « يا ايها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة » (١) لكنهم لم يتخذوا قط - فى التركيز على هذا الجانب الاهم - اسلوبا يتسم باستهانة بقيمة الاشتغال بهذه العبادات والأذكار ، والاكثار من التسبيح والتحميد والتلاوة ، ولا سيما فى هذا العصر الذى طغت فيه المادة على الروح ، وبدأت تقل تلقائيا اهمية الاكثار من العبادة والذكر ، واصبح الاسلوب المادى والسياسى يفرض سيطرته على الحياة ، فكم كان يتحتم التحفظ ، وملاحظة الدقة والحكمة لدى الحديث عن مثل هذا الموضوع الدقيق الحساس فى

---

(١) سورة البقرة : ٢٠٨ .

مثل هذا الوضـــــع المكهرب ، فان النـــسائم يكفيه أدنى هزه للسقوط .

اشادة القرآن بذكر الاكثار من اعمال العبادة ، وترغيبه فى ذلك :

وعلى العكس من ذلك نجد القرآن الكريم يرغب مرة بعـــد أخرى فى الاكثار من هذه الأعمال ، ويثنى على المكثرين منهـــا ، وينوه بشأنهم ، ويلهج بذكرهم فى معرض المدح والثناء :

« تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعـــا ومما رزقناهم ينفقون » (١) .

« والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما » (٢) .

« والمستغفرين بالأسحار » (٣) .

« والذاكرين الله كثيرا والذاكرات » (٤) .

« يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصـــيلا »(٥) .

ويمكنك أن تقدر مدى استحسان الله سبحانه لصفة الذكر

---

(١) الآية ١٦ من سورة السجدة
(٢) الآية ٦٤ من سورة الفرقان
(٣) سورة آل عمران ١٧.
(٤) سورة الأحزاب ٣٥
(٥) سورة الأحزاب : ٤٢ .

والانابة والاخبات والاقبال على ذات الله ، من انه يحث رسوله الحبيب محمدا صلى الله عليه وسلم افضل الخلائق — الذى عن طريق تعاليمه نالت الأمة أنواع سعادة الدنيا والآخرة — على أن يبالغ فى تقدير المتحلين بهذه الخصال وتفضيلهم ، يقول :

« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم ، تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه ، وكان امره فرطا »(١) .

ويقول فى موضع آخر :

« ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين »(٢) .

اما الأحاديث الصحيحة التى تنوه بفضيلة الاكثار من النوافل والذكر والتلاوة ، فهى فى عدد يستعصى على الاستقصاء، وللقارىء الكريم أن يراجع الكتب والأبواب المفردة لبيان ذلك فى كتاب من كتب الصحاح الستة ، وليقرأ خاصة حديث التقرب

---

(١) سورة الكهف : ٢٨.
(٢) سورة الأنعام ٥٢ .

بالنوافل (١) ليدرك مدى فضيلة النوافل وكبر شأنها ، اما الاكثار من الذكر فيكفى الحديث التالى :

« عن عبد الله بن بسر رضى الله عنه أن رجلا قال : يارسول الله ان شرائع الاسلام قد كثرت على فأخبرنى بشىء أتشبث به . قال : لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله » (٢) .

الاعتقاد بمجرد حاكمية الاله

وسلطة الرب ، وتاثيره النفسى :

ان هذا المنهج من التفكير ، وهذا الأسلوب الكتابى — الذى قد اسلفنا نماذج منه — يشكل خطر ظاهرة خطيرة — وقد بدت آثارها — وهى ان الذين يستقون معلوماتهم الدينية من نبع هذا التفسير للاسلام وحده ، وتقتصر دراستهم للاسلام على هذه الكتابات وحدها ، ستعود علاقتهم مع الله ضيقة ، محدودة جافة ، جامدة رسمية ، فارغة من الكيفيات الداخلية ، التى مطلوب من المؤمن ان يتكيف بها ، ولا سيما اذا جاء الضغط مرارا وتكرارا على أن الهدف الجذرى من بعثة الانبياء ، وأن غاية تعاليمهم ومنتهى أعمالهم ، هو احداث التغيير فى هذه الحياة الدنيا المحدودة ،

---

(١) وهو الحديث الذى رواه الشيخان فى صحيحيهما « لايزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى اكون سمعه الذى يسمع به «الخ» .
(٢) رواه الترمذى .

والقيام بالانقلاب الصالح ، وتأسيس الحضـــارة البشرية على الأسس الصحيحة ، واذا جاء التركيز على هذه الناحية بشـــدة وحدة ، وحماس وقوة ، وبأسلوب يجعل تصورات الحب الالهى ، والرضا الربانى ، والفلاح الاخروى تتضاءل ، فمن الطبيعى ومما يتفق والعقل والمنطق والقياس ، أن يحيد ركب السعى والعمل عن جادة الايمان بالغيب ، والحنين الى الآخرة ، وطلب رضـــا الله ، والتفانى فى حبه ، تلك الجادة التى وضـــعه عليها الأنبياء عليهم السلام ، الى درب طلب الحكم والعز والغلبة والوصول الى الحكم ، وبالتالى الى المادية المجردة .

اقرأ المقتطفات الآتية لكى تدرك بعض الشىء اى نوع من القلوب والأذهان سيصوغها هذا القالب من التفكير :

١ ـــ « ان الاسلام يهدف اصلا الى تخريج جمـــاعة من الصالحين تقوم ببناء المدنية الانســـانية على اسس من الخـــير والفلاح » (١) .

٢ ـــ « من أجلّ تأسيس هذه الحضارة والمدنية فى الأرض بعث الأنبياء عليهم السلام تترى »(٢) .

---

(١) «نظرة فاحصة على العبادات الاسلامية» (باللغة الاردية) الجزء الأول ، ص ٧٥ ، توزيع : « دار الاشاعة نشاة ثانية » حيدر آباد .

(٢) « التجديد واحياء الدين » (باللغة الاردية) توزيع مكتبة الجماعة الاسلامية ، دار الاسلام « بتهان كوت » بنجاب ، ص ٢١ .

٣ ـــ « فغاية مهمة الأنبياء ـــ عليهم السلام ـــ فى الدنيا هى الحكومة الالهية وتنفيذ نظام الحيـــاة ـــ بجميع اجزائه ـــ الذى جاءوا به من عند الله »(١) .

ويقول فيما بعد هذه السطور :

« من أجل ذلك حاول الأنبياء احداث الانقلاب السياسى ، فاقتصرت جهود بعضهم على تهيئة الأرض ، كسيدنا ابراهيم عليه السلام ، وقام بعضهم فعلا بحركة الانقلاب ، ولكن عملهم قـد توقف دون أن يتحقق تأسيس الحكومة الالهية كسيدنا المسيح عليه الســلام ، وبعضهم قد وصـلوا بهـذه الحركة الى منزل النجاح ، كسيدنا موسى عليه السلام ، وسـيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم »(٢) .

هل العبادات والأركان الأربعة الاسلامية ، هى مجرد وسائل ؟

اضف الى ذلك ان المؤلف الداعية ، تتملك عليه هـذه « الفكرة المركزية » مشاعره ، وتستولى عليه استيلاء يجعل جميع العبادات الاسلامية واركان الاسلام الأربعة الصلاة ، والصوم ، والزكاة والحج) تبدو له وسـائل وذرائع الى تلك

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٢ .
(٢) نفس المصدر ص ٢٢ .

الغاية ، وتدريبا لها ، وتمرينا لها ، وتمرينا عليها ، قد صرح بذلك مرات ومرات ، يقول فى موضع :

« هذه هى الغاية التى من اجلها فرض الاسلام عبادات الصلاة والصوم ، والزكاة والحج ، والتعبير عنها بالعبادة لا يعنى انها هى العبادة ليس غير ، بل معنى ذلك انها تعد الانسان لتلك العبادة ، فكأنها مقررات تدريبية لازمة لها » (١) .

بيان القرآن الصريح وترتيبه الصحيح :

ان العبارة المذكورة اعلاه تدل دلالة واضحة على ان العبادات المعينة المشروعة (الصلوات الخمس) فى الواقع وسائل الى غاية اخرى ، هى الطاعة وتاسيس الحكومة الالهية ، واعادة التنظيم الى الحياة ، على حين ينص القرآن الكريم على أن الجهاد والحكومة وسيلة و « اقامة الصلاة » هى الغاية (٢) ، ولندع القرآن يقرر ما هى الغاية وما هى الوسيلة ، اقرأوا معى

---

(١) « نظرة فاحصة على العبادات الاسلامية » الجزء الاول ص ١٣ .

(٢) ولا يمنع كون الصلاة والعبادات والأركان الاربعة مقاصد مطلوبة ، من ذكر أسرارها ، وحكمها وفوائدها فى الحياة الاجتماعية ، وقد سلك علماء الاسلام هذا المسلك فى كتبهم كالغزالى والخطابى وعز الدين بن عبد السلام والشيخ احمد بن عبد الرحيم الدهلوى ، وسار سيرتهم المؤلف فى كتابه « الأركان الاربعة فى الاسلام » .

الآيات التالية من سورة الحج :

« اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلمـــوا ، وان الله على نصرهم لقدير ، الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا : ربنـــا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيـــع وصلوات ومساجد يذكر فيهـــا اسم الله كثـــيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز ، الذين ان مكنـــاهم فى الأرض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » (١) .

شهادة اسوة الرسول والذوق النبوى :

من الحقائق التى لا تقبل الجدال والنقاش ان « الوسائل » لا تكون علاقة المرء معها الا علاقة عادية متحددة فى نطاق الضرورة، ومن الطبيعى ان يراها مرحلة انتقالية مؤقتة ، ومن هنالك فـــلا يفكر فى أن يتقدم فيها ويتفوق ، ويصل الى مدارج الكمـــــال ، ولا تثور فى نفسه عاطفة التذوق والالتذاذ بها ، والاطمئنـــــان اليها ، واذا فيعجز الانسان الذكى فى تحديد معانى الاحاديث ـــ وادراك قيمتها واهميتها ـــ التى تصف كيفيـــة صـــــلاة النبى صلى الله عليه وسلم بما يلى : « ولجوفه ازيز كازيز المرجل من

---

(١) سورة الحج ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ .

البـــــــكاء »(١) . و « جعـــــلت قـــرة عيـــنى فى الصلاة »(٢) . وقوله صلى الله عليه وسلم لسيدنا بلال رضى الله عنه . « يا بلال اقم الصلاة ارحنا بها »(٣) . و « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حزبه امر صلى »(٤) .

ولنظرة على القرآن الكريم تدل دلالة صـــــارخة على ان العلاقة مع الله ، والعبودية ، والعبادات المعينة (الصـــــلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج) مطلوبة من العبـــد راســـا حيث يسأل عنها يوم القيامة ، ويستحق العقاب لو تركها او اهمل فيها ، يقول القرآن الكريم وهو يصور الحوار مع الذين استحقوا النار : « ما سلككم فى سقر قالوا لـــم نك من المصـــلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض من الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى آتانا اليقين »(٥) .

ويقول فى موضع فيما يتصل بالكافرين :

« فلا صدق ولا صلى ، ولكن كذب وتولى ، ثم ذهب الى اهله يتمطى »(٦) .

---

(١) رواه ابو داؤد والترمذى .
(٢) رواه النســـائى .
(٣) ، (٤) رواه ابو داؤد
(٥) سورة المدثر ، الآيات : ٤٢ ـــ ٤٧ .
(٦) سورة القيامة ، الآيات : ٣١ ـــ ٣٣

هذه الآيات تـــدل صريح الدلالة على ان العبـــادات واركان الدين ، هى حجر الزاوية فى نظام الدين كله ، يؤاخذ عليها العبد ويحاسب يوم القيامة ، اما الأمور الأخرى ـــ كاقامة الحـــكومة الالهية وتأسيس المدنية الاسلامية على اسس الخير والفـــلاح ـــ فهى وسائل ، وفى درجة ثانوية فى الدين .

التأثير النفسى لاعتبار العبادات والأركان وسائل :

ان الوسائل ـــ كما اسلفت ـــ لا يعنى بها الانسان الا بقدر الضرورة ، فلا يشـــغف بها ، ولا ينهمك فيهـــا .. واذا كانت العبادات ـــ حتى الصلوات الخمس المفروضة ـــ مجرد وســـائل وذرائع فما معنى ـــ يا ترى ـــ طول قيامه صلى الله عليه وســـلم وطول صلاته فى جوف الليل « حتى تورمت قدماه(١) » وما معنى ترغيبه فى الاكثار من النوافل وتبشيره بأنها تقرب العبد الى ربه(٢) وتنويهه بأهمية انتظار الصـــلاة بعد الصـــلاة ، وتعبيره عن ذلك

---

(١) روى الشيخان والترمذى والنسائى عن المغيرة بن شعبة انه « قام النبى ـــ صـــلى الله عليه وآله وســـلم ـــ حتى تورمت قدماه » .

(٢) اقرأ الحديث « لا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل الخ » الذى رواه الشيخان .

بـ « الرباط »(١) وادراجه الرجل الذى « قلبه معلق بالمساجد »(٢) فى أولئك السعداء الذين « يظلهم الله فى ظله يوم لاظل الا ظله » وقوله عليه السلام : « عليك بكثرة السجود» (٣) وفوق ذلك كله وصف القرآن الكريم المؤمنين بالكلمات ذات الدلالات العميقة البارعة « والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما » و « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » مما يدل على أن هذه العبادات ليست وسائل مجردة الى اقامة الحكومة الالهية ، والطاعة والتنظيم والحكم ، بل

---

(١) أخرج مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات ؟ قالوا : بلى يا رسول الله صلى الله عليه وسلم! قال : اسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا الى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط » .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سبعة يظلهم الله يوم لا ظل الا ظله : امام عادل، وشاب نشأ فى عبادة الله تعالى ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : انى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، (متفق عليه) .

(٣) جاء مرويا عن ثوبان وأبى الدرداء رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « عليك بكثرة السجود ، فانك لا تسجد لله سجدة الا رفعك الله بها درجة ، وحط عنك بها خطيئة » (رواه مسلم ، والترمذى ، وابن ماجة ، والنسائى ، وأحمد فى مسنده) .

انها غاية منشودة واعمال مقصـــودة بذاتهـــا ، وان كان لا بد من وصفها بالوسـائل ، فانها وسائل التقرب الى الله والفوز برضاه .

ومن نتيجة هذا الاسلوب من التفكير انه يجعل المرء لا ينبعث فى نفسه الشعور بالصلة القلبية بالعبادات ، ولا يتحرك لانشـــاء الروح والكيفية الباطنية فيها ، ولا تثور فى قلبـــه عاطفة الحصول على صفة الخشـوع والخضوع ، والانابات والاستحضار ، ودوام الذكر والاخـــلاص ، والايمان والاحتســـاب ، ولا يرى الحاجة الى هذه الكيفيات الباطنية والاخلاق الايمانية و « الاحسانية » ، ولا يحسب حسابا لقيمتها وغنائها ، فضلا عن ان يفكر فى الحصول عليها ، والتفوق فيها ، واحراز قصب السبق فى مجالهـــا ، وان يبحث عن ائمـــة هـــذا الفن والاخصائيين فى هـــذا الطب ، فيستفيد من تجاربهم ، ويعمل بوصاياهم ونصائحهم الخاصة بهذا الموضـــوع :

وقد كانت شبه القـــارة الهندية فى القرون الاخيرة اكبـــر مركز للعارفين والربانيين الذين كانوا دعاة مخلصين الى انشاء الروح والحقيقة فى العبادات ، وشحن بطارية القلب بالانابات والانابة ، وشفع الاعمـــال بالاخـــلاص والاحتســـاب ، وقـــد خـــرجوا فى الاصلاح والتزكية والاحسـان ائمـــة ومحققين انتفعت بهم انحـــاء

بعيدة عن العالم الاسلامى ، واقطار كانت مهد العلوم الاسلامية ومركزها .

والأستاذ المودودى نفسه يضطر أن يعدل — حينما يتعرض لهذا الموضوع — عن اسلوبه المعتاد الممتاز بالجدية ، فينفث قلمه ما يختلف كل الاختلاف عن كتاباته الاخرى ، فحين يتحدث عن الجهود الاصلاحية والمآثر التجديدية التى قام بها الامام احمد بن عبد الأحد السرهندى (المعروف بمجدد الألف الثانى) المتوفى ١٠٣٤هـ ، والامام احمد بن عبد الرحيم ولى الله الدهلوى (م١٠٧٦هـ) واتباعهما ومن خلفهما فى الدعوة والاصلاح والتجديد يقول عن « التصوف » الذى ظلوا يعضون عليه بالنواجذ طيلة حياتهم ويدعون اليه الناس :

« فكما أن الشيء الحلال مثل الماء يحرم على المريض اذا أضره ، فكذلك هذا « القالب » (١) ، وجب تركه — على رغم كونه مباحا — وذلك لأنه حبب عن طريقه الى المسلمين « الأفيون » فما أن يقترب اليه هؤلاء المرضى المصابون بالداء العضال ، الا ويتذكرون هذه الحبيبة التى تيمتهم ، والتى دامت تنومهم قرونا

---

(١) اشارة الى « التصوف » .

طويلة (١) .

أسطورة البطالة والاستسلام

والفرار عن معترك الحياة :

وبصرف النظر عن حقيقة « التصوف الاسلامى » ومدى اتصاله بالكتاب والسنة (٢) ، وأن هذا المصطلح الذى حدث وشاع فى القرن الثانى فما بعده ، قد جنى على حقيقته ومقاصده ، وأن الأصل هو التعبير القرآنى « التزكية » الذى ورد فى مقاصد البعثة ، فى سورة آل عمران ، وفى سورة الجمعة ، والتعبير المأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم وهو (الاحسان) الذى ورد فى الأحاديث الصحيحة ، والانكار على ما أحدثه المتأخرون الخاضعون لفلسفات العجم ، وبصرف النظر كذلك عما يمكن أن يقال فى هذا الموضوع ، وما ذهب اليه شيخ الاسلام ابن تيمية من التحقيق والتنقيح ، وما جاء فى كتابه (مدارج السالكين) لتلميذه وحامل علومه العلامة الحافظ ابن قيم الجوزية ، فلا يتسع المجال فى هذه العجالة للحديث فى هذا الموضوع ، ولسنا فى موقفة

---

(١) « التجديد واحياء الدين » ص ٧٣ — ٧٤ .

(٢) للاستاذ المودودى كلام جيد نوافقه عليه فى حقيقة التصوف الاسلامى ، والفرق بينه وبين الفقه ، راجع كتابه .. .. « مبادىء الاسلام » عنوان « التصوف » ص ١١٧ — ١١٩ ، الطبعة الثانية ، مكتبة الشباب المسلم .

الدفاع عن هذه الجماعة .

بصرف النظر عن كل ذلك ، نستعرض ما نسبه الاستاذ المودودى الى هذه الجماعة من البطالة ، والاستسلام ، والفرار عن معترك الحياة ، ونزنه فى ميزان العلم والتاريخ ، ونعرضه على محك التحقيق ، فان العلم أحق بالاحترام من الاشخاص والأفراد ، وقد ورد فى القرآن صريحا « يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى ، واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون » (١) وسيكون البحث بحثا تاريخيا مجردا ، بعيدا عن كل عصبية ، ونزعة شخصية .

ان الاستاذ المودودى آمن كحقيقة بديهية ثابتة لا تقبل عنده جدالا ولا نقاشا : بأن « التصوف » عبارة عن البطالة والكسل والجمود ، والفرار عن معترك الحياة ، والانسحاب عن ميدان الكفاح والنضال ، والتراجع عن معركة الحق والباطل ، بل التفاهم مع القوى الباطلة ومسالمتها فضلا عن الاستسلام والخضوع لها ، وكلاهما يستلزم احدهما الآخر ، لا يفترقان أبدا ...

---

(١) المائدة : ٨ .

يقول فى موضع :

« هل هناك دليل واقعى فى الكتابات الصوفية على ان هؤلاء الشيوخ ـــ الذين تنمى اليهم هذه المناهج الصوفية ـــ كانوا يضعون فى اعتبارهم « اقامة الدين » بأوسع معانيها ، وهل هناك دليل على انهم انما اتخذوا هذه المناهج من اجل تخريج الرجال لهذا الغرض ، وهل قام الرجال المتخرجون فيها ـــ ولو مرة ـــ بهذا العمل ؟ » (١) .

غيض من فيض :

واجابة على هذا التساؤل ، سوف لا أتوغل فى الثروة التاريخية الفنية المكثفة ، ولا انتقى منها اسماء الكثرة الكاثرة من رجال الجهاد والكفاح ، والدعوة والعزيمة والاصلاح ، وقادة حركات الثورة والانقلاب ، الذين كانوا يجمعون بين السيف والمصحف ، والعقل والعاطفة ، وبين التسبيح فى المسجد والبيت فى ظلام الليل ، والتكبير فى ساحة الجهاد على صهوات الخيل ، ولا يهابون السجون والمعتقلات ، والمشانق والمحاكمات ، وقد جابهوا القوى الباطلة برجال أعدوهم اعدادا واحسنوا تربيتهم ... بل نكتفى بعرض نموذجين من كتاب الاستاذ نفسه « التجديد واحياء الدين » وهما : الامام السيد احمد بن عرفان

---

(١) « رسائل ومسائل » (بالاردية) الجزء الثانى ، ص ٦٠٢.

الشهيد ، والشيخ اسماعيل بن عبد الغنى بن ولى الله الشهيد (ش ١٢٤٦ هـ) اللذان قال فيهما : « ان هذين الشيخين قد غذيا هؤلاء المرضى من جديد ذلك الغذاء الذى قد عهد انه يضر ضررا مبيدا فى مثل هذا المرض » وأن « عملية البيعة كانت تصاحب حركة السيد احمد الشهيد » ... يقول معترفا بتأثير السيد أحمد الساحر الملموس ، ودوره فى التغيير والانقلاب :

١ ـ « انه نهض بعبء اصلاح عامة الخلق دينا وخلقا وسلوكا ، وحيثما بلغ تأثيره ، حدث تغير هائل فى الحياة جدد ذكرى عهد الصحابة الكرام رضى الله عنهم .

٢ ـ انه أعد عدته للجهاد على نطاق واسع لم يكن سهلا ميسورا فى اوائل القرن التاسع عشر فى بلد منحط كالهند ، تجلت فيه مواهبه التنظيمية النادرة ، واوحت اليه المعيته البالغة أن يتخذ المنطقة الشمالية الغربية من الهند منطلق عمليته ، لأنها كانت بدون شك أكثر ما تكون ملاءمة لهذا العمل باستراتيجيتها وموقعها الجغرافى والسياسى ، وتقيد هذا الجهاد بصميم تلك المبادىء الخلقية والقوانين الحربية التى يتميز بها المجاهد فى سبيل الله عن المحارب المادى ، وبذلك فهو مثل امام العالم من جديد روح الاسلام الحقيقى ، ولم يكن يبتغى من وراء جهاده

عرضا من الدنيا او تشييد ملك ودولة ، او انتصار لعصبية قومية او غرضا من الاغراض الدنيوية ، بل كان جهاده خالصا لوجه الله الكريم، **ولم يكن يهدف الا الى انقاذ خلق الله من حكم الجاهلية وتاسيس نظام الحكم الذى يرضاه الخالق ومالك الملك ،** وبدا الحرب من اجل هذا الغرض على الطريقة الاسلامية ، فدعا اولا الى الاسلام او الجزية ، ثم باشر الحرب بعد اتمام الحجة ، والتزم التزاما دقيقا بالقوانين الحربية المتحضرة التى علمها الاسلام ، لم يتعرض لظلم او وحشية او اضطهاد ، كلما دخل قرية دخلها كمصلح لا كمفسد ، ولم تكن جنوده تحمل معها خمرا، ولم تكن تصاحبها الجوقة الموسيقية ، ولا طابور المومسات ، ولم يكن معسكره مصائد الفجرة ، ولم يحدث ان مر رجال جنده بمنطقة فاصبح اهلها يشكون الغائلة على مالهم وحرمهم وحقيقتهم ، كانت رجاله رهبانا بالليل وفرسانا بالنهار ، يخشون الله ويخافون حساب الآخرة ، قائمين على الحق فى كل حال ، سواء اجر عليهم القيام عليه خسارة او جلب لهم ربحا ، لم يتخاذلوا اذا انهزموا ، ولم يتجبروا ويتكبروا اذا انتصروا .

٣ ـ « والفرصة القليلة التى اتيحت له للحكم فى منطقة صغيرة ، اقام فيها نفس الحكومة التى يقال لها « الخلافة على منهاج النبوة » فامارة ساذجة متقشفة ، ومساواة وشورى ،

وعدل وانصاف ، وتنفيذ للحدود الشرعية ، واخذ للمال بالحق ، وانفاقه بالحق ، وانتصار للمظلوم وان ضعف ، وانتقام من الظالم وان قوى ، واستشعار لخوف الله في الحكم ، وادارة السياسة على اساس الأخلاق الصالحة ، وجملة القول انه مثل من جديد ذلك الحكم الذى حكمه — في زمن بعيد — الصديق والفاروق رضى الله عنهما » (١) .

أفلم تكن جهود الشهيدين وجهادهما في سبيل « اقامة الدين » ؟ :

وها هنا يمكن أن نتساءل — بكل ادب واحترام — : أفلم يكن الهدف الذى من اجله قام السيد احمد وصاحبه العلامة اسماعيل ابن عبد الغنى الشهيدان بهذه المحاولات كلها ، أو لم يكن ما احرزه من نجاح في اصلاح الأخلاق والسلوك ، واحداث التغير الهائل في الحياة ، واعداد الرجال للجهاد ، والقيام بالجهاد وفق المبادىء الاسلامية الأصيلة ، وتأسيس نظام الحكم المرضى لدى الخالق مالك الملك ، واقامة الحكومة التى كانت على نموذج الخلافة في عصر الراشدين ، أفلم يكن ذلك كله محاولة « لإقامة الدين »(٢) ؟ وهل قام بهذه المآثر الا اولئك الذين كانوا ائمة

---

(١) « التجديد واحياء الدين » (بالأردية) ص ٧٠ — ٧١ .
(٢) وارجو القاء نظرة ممعنة على السطور المخطوط عليها التى لا تشرح الا « اقامة الدين » .

فن التزكية والاحسان يدعون الى الربانية الصافية ، والتربيـة الروحية البعيدة عن كل بدعة وخرافة .

وذلك طبيعى ومنطقى تماما ، وما يقرره علم النفس والتربية فانه لا يضطلع بهذا « العمل الجليل » الا ذلك الذى تحرر كليـا من عبادة النفس والهوى ، وتخلص تمـاما من براثن الأمراض الجاهلية كـ « حب الدنيا » و « حب الحيـاة » و « كراهيـة الموت » تلك التى تشير اليها الآية الكريمة « يود احدهم لو يعمر الف سنة » ، واصبح حنين وشوق الى لقاء الله والفوز برضاه ، والوجد والهيام ، والحب والحنان ، حتى كأنه يقول بلسان حاله :

غـدا الاقى الأحبـة محمـدا وحـزبه (١)

وارى جديرا أن انقل بهذه المناسبة ما سبق لى ان قلتـه فى مقال لى فى معرض الحديث عن حب هؤلاء الربانيين وشوقهم الجامح للجهاد والشهادة :

« الحقيقة أن هذه المجاهدات والرياضات ، وتزكية النفس والصلة بالله ، تنشىء فى الانسان حالة عجيبة من الشوق والوجد ، والحب والحنان ، تتغلغل فى احشائه ، وتستقر فى اعماقه ، حتى

---

(١) تلك الكلمات قالها سيدنا بلال رضى الله عنه وهو فى حالة الاحتضار يلفظ انفاسه الأخيرة ، وقد رويت أشباهها عن كثـير من العارفين وعباد الله الصالحين .

تراه يتشهد بلسان حاله ، ويقول :

« انى لا املك شيئا افديك به ، الا هذه الحياة التى اعرتنى اياها ، فهى منك ولك ، ومن فيضك وفضلك » .

فنهاية المطاف فى هذه الرحلة الروحية والسلوك الطويل ، هى حب الشهادة ، والغاية الاخيرة من هذه المجاهدة والرياضة هى الجهاد .

ان اليقين والحب هما جناحان لصقر الجهاد والاجتهاد يحلق بهما فى السماء ، انه لا يستطيع احد أن يترفع عن اهواء نفسه ، وعاداته ومألوفاته ، ومصالحه ومنافعه ، واغراضه وشهواته ، ولا يمكن لاحد ان يترفع عن المستوى السافل الذى اشار الله اليه بقوله : « ولكنه اخلد الى الارض واتبع هواه » الا اذا تجلى فيه اليقين والحب ، فاصبح كالبرق الخاطف فى الليل البهيم ، او كالشعلة المتأججة التى لا تخمد نارها ولا يهدأ اوارها .

ان تجارب الحياة الطويلة تدلنا على أن المعلومات والدراسات ، أو القوانين والاشكال الفارغة لا تستطيع أن تثير فى الانسان ادنى رغبة فى الايثار والتضحية ، فضلا عن الفداء بمهجته وروحه ، انه لا بد له من صلة عميقة راسخة ، ولذة روحية ، والحرص على فائدة معنوية تصغر فى عينيه الفوائد المادية العاجلة ولعل الشاعر انشد فى هذا الحال ، او صور هذا الموقف اذ قال :

فحيهلا ان كنت ذاهمة فقد حدى بك حادى الشوق فاطو المراحلا
وقل لمنادى حبهم ورضاهم اذا ما دعا ، لبيك الفا كواملا(١)

وذاك هو السر فيما نراه من وجود شخصية فذة قوية ، على راس كل حركة للجهاد والكفاح ، نفخت فى المجاهدين روح الحماسة واليقين ، وحملت هذه الشرارة الى صدور المؤمنين الآخرين ، حتى شقت عليهم حياة الهدوء والنعيم والترف ، واصبحوا لا يطيقونها ، وهانت عليهم حياة الشهادة والجهاد ، والبطولة والتضحية ، وعزت عليهم الحياة كما عز على غيرهم الموت ، وذلك هو النموذج الكريم المفقود ، والامام المنشود المقصود الذى اشار اليه « اقبال » فقال :

« ان الامام الحق وامام العصر ، هو من يبعث فيك المقت والكراهة للحاضر والموجود ، يريك وجه الحبيب فى مرآة الموت ، فينغص عليك الحياة ، ويبعث فيك الشعور بالخسارة ، فيبعثك بعثا جديدا ، ويسن حديدك بالفقر ، فتصبح سيفا بتارا لا يبقى ولا يذر»(٢)

---

(١) من ابيات وردت فى كتاب زاد المعاد لابن القيم فى فصل الجهاد .
(٢) من مقال « بطولة وكفاح ، لا بطالة ولا استسلام » المعرب من الأردية بقلم الاستاذ محمد الحسنى ، المتدرج فى كتاب « ربانية ، لا رهبانية » .

على راس كل حركة الجهاد والتضحية

شخصية روحيـــة قـــوية :

وليقدم احد ازاء ذلك مثالا واحدا لمحاولات « اقامة الدين » تحقق على يد شخصية بعيدة عن الاعتناء بالباطن وتزكيـــة النفس والصلةالعميقة بالله بل منكرة لكل ذلك ومعارضة اياه ، وها هو ذا تاريخ الاسلام والمسلمين الماضى بين ايدينا نعرفه نحن والأســـتاذ المودودى وكثير وكثير من رجال العلم والثقـــافة والدراســـة ، فليدلنا احد على حركة جهـــاد وكفاح وتجـــديد واصـــلاح ، كان قائدها وليد مجرد ذكائه ودراسته ، ومعلوماته ومطالعته ، وتأمله وامعانه ، ما « مسته » تربية دينية روحيـــة ، ولا تزكية ربانية قوية(١) .

وعلى العكس من ذلك نـــرى أن من قاد هذه الأمـــة فى أشد ساعاتها واحرج مواقفها من الاحتضار والانهيار ، وحينمـــا تغلبت عليها الأوضاع الفاسدة ، أو دهمتها الليالى القاتمة ، أو تداعت عليها الأمم ، وبدا التغيير محالا ، هم رجال الحب واليقين ،

---

(١) ويمكن تسمية بعض المصلحين الجانبيين الذين مثلوا دورا لا يستهان بقيمته فيما يتصـــل بالدعوة والتبليغ واصـــلاح العقائد والكفاح ، والتجديد الاسلامى ، ويستدل بذلك على عدم عموم هذه الكلية واطلاقهـــا ، ولكنهم كانوا يتمتعـــون بروح « الاحســـان » والصلة بالله وتزكيـــة النفس ، وذلك هـــو المطلوب ، ليس المنهج الخاص « الروتينى » لتحصيل هذه النتيجة ، فتبقى الكليـــة على عمومها واطلاقها .

ليس غير(٢) .

« لما هجم التتار على العالم الاسلامى ، وداسوه تحت اقدامهم ، وتقلص ظل الخلافة العباسية ، وقضى على حكومة «خوارزم شاه» التى كانت الحكومة الاسلامية الوحيدة فى ذلك العصر ، استولى اليأس القاتل على العالم الاسلامى كله ، وعلموا أن الانتصار عليهم ضرب من المحال ، وترددت على ألسنة الناس « اذا قيل لك ان التتر انهزموا فلا تصدق » هنالك برز فى الميدان بعض رجال العزيمة واصحاب القلوب ، ولم ييأسوا من هذه الأوضاع ، واستمروا فى مهمتهم وجهادهم ، حتى أسلم بعض ملوك التتار على ايديهم ، ودخل الناس فى دين الله افواجا .

ولما اتجهت حكومة « اكبر » — فى الهند الى اللادينية والالحاد اتجاها سافرا ، واراد « اكبر » — وكان من اكبر الملوك الذين عرفتهم الهند ، واقواهم — ان يطمس على معالم الاسلام وملامحه الواضحة وميزاته البارزة ، بجميع ما عنده من وسائل ومواهب وطاقات ، وقد اجتمع عنده جمع من الاذكياء وذوى الكفاءات النادرة يعينونه على هذا الباطل ، ولم يكن هناك ضعف او هرم فى الدولة يشير الى زوالها ، او يدل على

---

(١) ومن شاء فليقرأ كتابنا « رجال الفكر والدعوة فى الاسلام ليدرك صدق ما نقول .

ثورة يتأجج أوارها ، وكان العلم والمنطق والقياس الظاهر ، لم يكن يصدق أنه سيقع هناك تغيير سار أو تحول بارز فى الحكومة والشعب .

هنالك قيض الله أحد عباده للاصلاح والتجديد ، فحمل راية الثورة بمفرده ، وبدأ فى ثورة داخلية بقوة ايمانه ويقينه ، وعزمه وتوكله ، وروحانيته واخلاصه ، حتى أصبح كل وارث للحكم المغولى أحسن من سابقه ، ثم تربع أخيرا على هذا العرش السلطان محى الدين « أورنك زيب عالمكير » الملك الفاضل الصالح المسلم الغيور الذى يندر نظيره فى تاريخ الحكومات الاسلامية » وكان رائد هذه الثورة المباركة ، امام الطريقة المجددية الشيخ أحمد السرهندى »(١) .

وكذلك نرى أن الذين هبوا لمقاومة القوى الاستعمارية منذ القرن التاسع عشر على الأقل الى منتصف القرن العشرين ، واشعلوا فى القلوب شعلة الجهاد ، ونفخوا فى المجتمع الاسلامى روح الكفاح والثورة ، والشجاعة والاستماتة ، والحرية والاستقلال ، والايثار والتضحية ، والحماسة واليقين ، والتفانى

---

(١) العبارة التى بين الهلالين مأخوذة من كتاب « ربانية لا رهبانية » فصل « بطولة وكفاح ، لا بطالة واستسلام » .

والمغامرة ، وأعجزوا القوى الغربية الكبرى — بعدد ضئيل من رجالهم وعتاد قليل من امكانياتهم — وسدوا عليها الطرق ، وضيقوا عليها الخناق ، وانقذوا أوطانهم من أن تظل لقمة سائغة وفريسة طيعة لها لمدة لا يعلمها الا الله ، كلهم كانوا من طراز هؤلاء الربانيين الذين جمعوا بين مجاهدة النفس وجهاد الأعداء ، وكما جاء فى وصف سلفهم وسابقيهم « بالليل رهبان وبالنهار فرسان » .

الأمير عبد القادر الجزائرى :

« ومنهم الأمير عبد القادر الجزائرى الذى رفع راية الجهاد فى الجزائر مقابل الفرنسيين ، وأطلق الشرارة الأولى فيها ولم يهدأ له بال من عام ١٨٣٢ الى ١٨٣٧ م حتى أقض مضاجع الفرنسيين ، وقد أثنى مؤرخو الغرب على شجاعته ، وعدله ورفقه ، وعلمه وفضله ، يتحدث عنه الأمير شكيب أرسلان ، فيقول :

« وكان المرحوم الأمير عبد القادر متضلعا من العلم والأدب ، سامى الفكر ، راسخ القدم فى التصوف ، لا يكتفى به نظرا حتى يمارسه عملا ، ولا يحن اليه شوقا ، حتى يعرفه ذوقا ، وله فى التصوف كتاب ، سماه « المواقف » فهو فى هذا المشرب من الأفراد الأفذاذ ، ربما لا يوجد نظيره فى المتأخرين »(١) .

---

(١) « حاضر العالم الاسلامى » ج ٢ ، ص ١٧٣ .

ويذكر كيف كان يقضي وقته ، وكيف كانت أيامه في دمشق فيقـــول :

« وكان كل يوم يقوم الفجر ، ويصلي الصبح في مســـجد قريب من داره في محلة العمـــارة لا يتخلف عن ذلك الا لمرض ، وكان يتهجد الليل ويمارس في رمضـــان الرياضة على طريقـــة الصوفية ، وما زال مثالا للبر والتقوى والاخلاق الفاضلة ، الى ان توفي رحمه الله سنة ١٨٨٣ م »(١) .

شيوخ الطريقة النقشبندية في ساحة الجهـــاد والاصـــلاح :

وفي عام ١٨١٣ م ، لما هجم الروس على طاغســـتان(٢) ، واستولوا عليها ، لم يقم في وجههم الا هؤلاء الشيوخ النقشبنديون ، وحملوا راية الجهاد ، وطالبوا بان يقضي في قضايا المسلمين بالشرع الاسلامي ، ويكونوا احرارا في تطبيق الشريعة في معاملاتهم .

يقول المرحوم الأمير شكيب ارسلان :

« وتولى كبر الثورة علماؤهم وشيوخ الطريقة النقشـــبندية

---

(١) « حاضر العالم الاسلامي » ج ٢ ، ص ١٧٣ .

(٢) طاغستان تقع على الساحل الغربي من بحر الخزر ، اكثر اهلها مسلمون اذا ضمت اليها القفقاز الشمالي يتراوح عـــدد المسلمين بين المليونين وثلاثة ملايين نسمة .

المنتشرة هنـــاك ، وكانهم سبقوا سائر المسلمين الى معرفة كون ضررهم هو من امرائهم الذين اكثرهم يبيعون حقوق الأمة بلقب « ملك » او « امير » وتبسوء كرسى وسرير ، ورفـــع عـــلم كاذبه ولذة فارغة باعطاء اوسمة ومـــرتب ، فثاروا منـــذ ذلك الوقت على الأمراء وعلى الروسية حاميتهم ، وطلبوا ان تكون المعاملات وفقا لأصول الشريعة ، لا للعادات القديمة الباقيـــة من جاهليـــة اولئك الأقوام ، وكان زعيم تلك الحركة « غازى محمـــد » الذى يلقبه الروس بـــ « قاضى ملا » وكان من العلمـــــاء المتبحرين فى العلوم العربية ، وله تاليف فى وجوب نبذ تلك العادات القديمـــة المخالفة للشرع ، اسمه : « اقامة البـــرهان على ارتداد عرفاء طاغستان » .

وفى عام ١٨٣٢ م اســـتشـهد الغازى محمد ، وحمـــل لواءه خليفته « حمزه بك » وجاء بعده الشيخ « شامل » وتســـلم زمام القيادة ، وكان كما يقول المرحوم الأمير شكيب : « صورة للأمير عبد القادر الجزائرى ، وكان قد انتقل من المشيخة الى الامارة » .

واستمر الشيخ شامل فى جهاده ضد روسيا نحو ٣٥ سنة ، وانتصر عليهم فى عدة معـــارك انتصـــارا باهرا ، وكان الروس قد اخذهم الرعب بشجاعته وشهامته وانســـحبوا له عن بلادهم

باستثناء بعض الولايات ، وقد فتح الشيخ جميع حصونهم وقلاعهم فى عام ١٨٤٣ ، ١٨٤٤ م ، ونال غنيمة كبيرة من الاسلحة والذخيرة ، وهنالك ركزت الحكومة الروسية كل عنايتها على طاغستان ، وزحفت اليها بخيلها ورجلها ، وانشد الشعراء قصائد تثير النخوة ، وسيقت اليها العساكر اثر العساكر ، ولكن الشيخ شامل استمر فى المقاومة والجهاد عشر سنوات اخرى ، ولم يضع سلاحه الا فى عام ١٨٥٩ م .

السنوسية ، وجهادها الاكبر فى افريقيا :

وأروع مثال لهذا الجمع بين المجاهدة والجهاد ، سيدى احمد الشريف السنوسى ، ولقد قدر الايطاليون انهم سيفتحون برقة وطرابلس فى خمسة عشر يوما ، ولكن القواد الانجليز الذين مارسوا الحرب فى المستعمرات ، وفى الصحارى ، عارضوا هذا الرأى وقالوا : انه يدل على عدم تجربتهم فى هذا المجال ، فقد يمكن أن تستغرق هذه الحروب ثلاثة اشهر ، فماذا حدث ؟ لقد استمر القتال الى ١٣ سنة كاملة ، ولم يستطع الايطاليون فى هذه المدة الطويلة ان يخمدوا نار الثورة فيها ، والفضل فى ذلك كله يرجع الى الفقراء السنوسيين ، وامامهم وشيخ طريقتهم : سيدى احمد الشريف ، وقد صدق الأمير شكيب ارسلان اذ قال : « ان بطولة السنوسيين دلت على ان الطريقة السنوسية هى عبارة عن

حكومة بأسرها ، بل وهنا عدة حكومات لا تملك من الوسائل ما يملكها رجال هذه الطريقة .

ويصف الأمير شكيب ، سيدى احمد الشريف ، فيقول :

« وقد لحظت منه صبرا ، قل أن يوجد فى غيره من الرجال ، وعزما شديدا تلوح سيماؤه على وجهه ، فبينما هو فى تقواه من الأبدال ، اذا هو فى شجاعته من الأبطال » .

السيد مهدى السنوسى وعنايته الفائقة بالفتوة والفروسية :

ان الصور الرائعة التى عرضها الأمير شكيب للزاوية السنوسية فى صحراء افريقيا الكبرى ، صورة جذابة مثيرة ، فيها دروس وعبر ، وفيها مسحة من جمال ساحر اخاذ ، ان هذه الزاوية كانت تقع فى « واحة الكفرة » وكان يديرها عم سيدى احمد الشريف وشيخه ، السيد المهدى ، وكانت أكبر مركز روحى ومخيم حربى — بلا نزاع — فى افريقيا .

يقول الأمير شكيب رحمه الله :

« فقد كان السيد المهدى يهدى هدى الصحابة والتابعين ، لا يقتنع بالعبادة دون العمل ، ويعلم ان احكام القرآن محتاجة الى السلطان ، فكان يحث اخوانه ومريديه دائما على الفراسة

والرماية ، ويبث فيهم روح الالفة والنشاط ، ويحملهم على الطراد والجلاد ، ويعظم في اعينهم فضيلة الجهاد ، وقد اثمر غراس وعظه في مواقع كثيرة ، لا سيما في الحرب الطرابلسية التي اثبت بها السنوسية ان لديهم قوة مادية تضارع قوة الدول الكبرى ، وتضارع اعظمها جبروتا وكبرا ، وليست الحرب الطرابلسية وحدها هي التي كانت مظهر شجاعة السنوسيين ، بل سبقت لهم حروب مع الفرنسيس في مملكة « كانم » ومملكة « واداى » من السودان ، استمرت من سنة ١٣١٩ الى سنة ١٣٣٢ هجرية .

« وحدثني السيد احمد الشريف أن عمه المهدي كان عنده خمسون بندقية خاصة به وكان يتعهدها بالمسح والتنظيف بيده ، لا يرضى أن يمسحها له أحد من اتباعه المعدودين بالمئات ، قصدا وعمدا ، ليقتدي به الناس ، ويحتفلوا بأمر الجهاد وعدته وعتاده : وكان نهار الجمعة يوما خاصا بالتمرينات الحربية من طراد ورماية ، وما اشبه ذلك ، فكان يجلس السيد في مرقبه عال ، والفرسان تنقسم صفين ، ويبدأ الطراد ، فلا ينتهي الا في آخر النهار ، واحيانا يضعون هدفا ، ويأخذون بالرماية ، حتى كنت ترى طلبة العلم والمريدين اكثرهم فرسانا ورماة ، لكثرة ما كان يأخذهم بهذا المران ، وكان يجيز الذين يسبقون في الطراد او يقرطسون في الرمي ، بجوائز ذات قيمة ، ترغيبا لهم في فضائل

الحرب ، كما انه كان يوم الخميس من كل اسبوع مخصصا عندهم للشغل بالأيدى ، فيتركون فى ذلك اليوم الدروس كلها ويشتغلون بانواع المهن ، من بناء ، ونجارة ، وحدادة ، ونساجة ، وصحافة ، وغير ذلك ، لا تجد منهم ذلك اليوم الا عاملا بيده ، والسيد المهدى نفسه يعمل بيده لا يفتر ، حتى ينبه فيهم روح النشاط للعمل .

وكان السيد المهدى ، وابوه من قبله ، يهتمان جد الاهتمام بالزراعة والغرس ، تستدل على ذلك من الزوايا التى شادوها ، والجنان التى نسقوها بجوارها ، فلا تجد زاوية الا لها بستان أو بستانان ، وكانوا يستجلبون اصناف الأشجار الغريبة الى بلادهم من أقاصى البلدان . وقد دخلوا فى الكفرة ، وجغبوب ، زراعات واغراسا لم يكن لأحد هناك عهد بها ، وكان بعض الطلبة يلتمسون من السيد محمد السنوسى أن يعلمهم الكيمياء ، فيقول لهم : « الكيمياء تحت سكة المحراث » واحيانا يقول لهم : « الكيمياء هى كد اليمين وعرق الجبين » وكان يشوق الطلبة والمريدين الى القيام على الحرف والصناعات ، ويقول لهم جملا تطيب خواطرهم وتزيد رغبتهم فى حرفهم ، حتى لا يزدروا بها او يظنوا أن طبقتهم هى ادنى من طبقة العلماء ، فكان يقول لهم : « يكفيكم من الدين حسن النية ، والقيام بالفرائض الشرعية ، وليس غيركم بأفضل منكم » واحيانا يدمج نفسه بين اهل الحرف ، ويقول لهم ،

وهو يشتغل معهم : « يظن اهل الوريقات والسبيحات انهم يسبقوننا عند الله ، لا والله ما يسبقوننا »(١) .

الشيخ حسن البنا ، ونصيب التربية الروحية في تكوينه ، وفي تكوين حركته الكبرى :

اما الحركات الاسلامية المعاصرة ، فقد برزت فيها حركة « الاخوان المسلمين » ، وهى اعظمها تنظيما وقوة ، وهى الحركة التى حملت راية الاصلاح والجهاد فى الزمن الاخير ، ودعت الى العودة للاسلام من جديد فى العالم العربى ، واكبر ميزاتها انها ترتبط ارتباطا وثيقا بالحياة ، ولها تأثير عميق بارز ملموس فى الحياة العامة فى الأقطار العربية كلها ، وكانت شخصية مؤسسها وقائدها الأول شخصية قوية ساحرة تجمع بين عدة جوانب ، انه كان عملا متواصلا وسعيا دائبا ، وهمة لا يتخللها فتور ، وأملا لا يرتقى اليه يأس ، جنديا ساهرا على الثغر لا يناله التعب والعناء، وكان وراء كل هذه الخصائص والسمات عامل قوى لا يستهان به ، وهى تربيته الروحية ، وسلوكه ورياضته ، انه كان فى اول امره — كما صرح بنفسه — فى الطريقة الحصافية الشاذلية ، وكان قد مارس اشغالها واذكارها ، وداوم عليها مدة(١) ، وقد حدثنى كبار رجاله

---

(١) حاضر العالم الاسلامى ج ٢ ص ١٦٣ — ١٦٤ .
(٢) « مذكرات الدعوة والداعية بقلم الامام الشهيد الشيخ حسن البنا . انظر الطريقة الحصافية » .

،وخواص اصحابه انه بقى متمسكا بهذه الاشغال والاوراد الى آخر عهده ، وفى زحمة أعماله ، وقد تحدث عن حركته فى المؤتمر الخامس المنعقد فى ١٣٥٧ هـ ، وبين خصائصها ، فقال : « دعوة سلفية ، وطريقة سنية ، وحقيقة صوفية ، وهيئة سياسية،وجماعة رياضية،ورابطة علمية ثقافية ، وشركة اقتصادية، وفكرة اجتماعية »(١) .

علماء الهند وشيوخها فى ساحة الحرب

وميدان الاصلاح والكفاح :

اما فى الهند فترى هناك مزجا غريبا ، واجتماعا نادرا من هذه الربانية الاسلامية ، والقيادة الجهادية ، يقل نظيره فى العالم الاسلامى ، اما السيد أحمد الشهيد وحركته ورجاله ، فحدث عن البحر ولا حرج(٢) ، فقد بلغ جمعه العجيب بين هذا

---

(١) رسالة المؤتمر الخامس : ١٨ ــ ١٩ ، ويراجع للتفصيل ولمعرفة تكون شخصية الشهيد الخاص كتاب « التربية الاسلامية ومدرسة حسن البنا » القيم ، للدكتور يوسف القرضاوى ، طبع مكتبة وهبه .

(٢) ومن أراد التفصيل فعليه بكتبنا « اذا هبت ريح الايمان » و « الامام الذى لم يوف حقه من الانصاف والاعتراف » وسيرة « سيد أحمد شهيد » (باللغة الأردية) و « سيد أحمد الشهيد » باللغة الانجليزية بقلم الأستاذ محى الدين عضو المجمع الاسلامى العلمى بلكهنؤ ، و « سيد أحمد شهيد » باللغة الأردية بقلم الكاتب السلفى الكبير المرحوم غلام رسول مهر .

وذاك ، وتفوته فى كلا الجانبين ألى حـــد التواتر ، واصـــبح من المسلمات فى هذه البلاد ، واذا اطلعنا على احواله وعلى احـــوال اصحابه وعلى تاريخهم ، علمنا انه كان نفحة من بقايا النفحات فى القرن الاول ، هبت فى القرن الثالث عشر واحيت الأرض بعد موتها، وبرهنت على ان الايمان والتوحيـــد والصـــلة الصـــحيحة بالله ، والتربية والسلوك على منهاج النبوة ، لا يزال يصنع العجائب ، وان التضحية والايثار والفداء من غير روحانية صافية مشرقة ، وعاطفة واصلاح قوية راسخة ، وحلم لا يتحقق ، وغاية لا تنال .

وكان من اتباعه وخلفائه امثال السيد نصير الدين ، ومولانا ولاية على العظيم آبادى ، على قدمه من هذا الجمع النادر العجيب، وتبعهم مـــولانا يحيى على ، ومولانا احمـــد الله الصـــادقبورى ، ومولانا محمد جعفر التهانيسرى ، ان احاديث جهادهم ومحنتهـــم ، وصبرهم على المكروه ، واحتمالهم الشدائد تذكرنا بمحنـــة الامام احمد بن حنبل رحمه الله .

وقد استمر هؤلاء الشيوخ من بعدهم فى الجهاد فى ســـبيل الله ، فرأينا الشيخ الكبير الحاج امداد الله المهاجر المكى ، والشيخ الحافظ ضامن الشهيد ، والشيخ محمد قاسم النانوتوى ـــ مؤسس دار العلوم ديوبند ـــ ومولانا رشيد احمد الكنكوهى ، فى ساحة

« شاملى »(١) يقاتلون الانجليز ، ويستشهد الشيخ ضامن فى ساحة الجهاد ، ويضطر الشيخ امداد الله الى الهجرة ، ويضطر الشيخ النانوتوى والشيخ رشيد احمد الكنكوهى الى التستر والخفاء مدة من الزمن ، وكان الشيخ احمد الله شاه ، والشيخ لياقت على من المشايخ الكبار الذين قادوا الجيوش لقتال الانجليز فى ثورة ١٨٥٨ م الكبرى ، وتولوا كبرها ، واستشهد بعضهم وقتل بعضهم شنقا .

ثم جاء بعدهم الشيخ محمود حسن الديوبندى — الذى لقب بحق « شيخ الهند » — واعد عدته لجهاد الانجليز ، وأراد انشاء حكومة مستقلة فى الهند ، فيها الأمر والنهى للمسلمين ، ودفعه طموحه وهمته الى الاتصال بتركيا ، والانسجام معها على خط الثورة والجهاد ، ان الرسائل الحريرية ، والاجتماع بأنور باشا ، واعتقاله فى جزيرة « مالطة » كل ذلك يدل على علو همته ونشاطه الدائب المستمر .. وكان على قدمه تلميذه النجيب الشيخ المجاهد حسين أحمد المدنى رحمه الله ، الذى أبلى بلاءا حسنا فى قيادة الثورة على الانجليز وحركة الاستقلال فى الهند ، وصدق الله العظيم : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم

---

(١) تربة جامعة فى مديرية « مظفرنكر » فيما بين دهلى و « سهارنفور » فى ولاية « اترابراديش » .

من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا »(١) .

التاريخ يحكم حكما حاسما :

ان التاريخ فى الحقيقة موضوع واقعى حساس رقيق الشعور ، انه لا يؤمن بالحديث المرجم ، او البت والابرام اللذين لا يستندان الى شهادة ووثائق تاريخية ، وارقام واعداد صحيحة دقيقة ، انه — لا يحابى انسانا ولا يمتنع من اصدار حكمه الحر الجرىء الصريح ، لان المحكوم عليه كاتب كبير ، او داعية شهير .

واجب « اقامة الدين » فى ضوء الشريعة والتاريخ :

ولا نجد هناك خلافا — فيما اعلم — فيما بين علماء الاسلام ، فيما يتصل بالسعى وراء الحصول على سلطة وقوة تمكنان من تطبيق حاكمية الله على البشر تطبيقا عمليا ، وتنفيذ احكامه وحدوده فى المجتمع البشرى ، حتى لا تعود هناك قوة او سلطة او نظام او طاعة وحكومة معارضة توقع الناس فى صراع وفتنة تشير اليها الآية الكريمة :

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله »(٢)

كما يجب الحصول على قوة ومكانة تملك بها الجماعة المسلمة

---

(١) العبارة التى بين القوسين منقولة من فصل « بطولة وكفاح لا بطالة واستسلام فى كتابنا « ربانية لا رهبانية » .

(٢) سورة الأنفال : ٣٩

القيام بالأمر والنهى ، ولا تكتفى بمجرد الدعوة اللسانية والترغيب البيانى فحسب ، ولذلك آثر القرآن ولسان الوحى التعبير بكلمة « الأمر » و « النهى » ـ على سعة اللغة العربية وغناها ـ وهما تتطلبان شيئا من القوة والعلو والغلبة حتى يكون الانسان فى موقف الآمر والناهى .

قال الله تعالى :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله »(١) .

« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر »(٢) .

والحصول على هذه السلطة والقوة ، والجد والاجتهاد فى سبيله ، مطلوب من المسلمين بالآيات القرآنية والنصوص القطعية ، ولا يجوز الاهمال فيه والتقصير عنه فى حال من الأحوال ،

وقد زخر القرآن والحديث بالتحذير من النتائج الوخيمة المشئومة المترتبة على ترك هذا الركن الاسلامى العظيم ، فى صورة انطماس معالم الدين وزوال شعائره ، وذل المسلمين وهوانهم

---

(١) سورة آل عمران ١١٠.
(٢) سورة آل عمران : ١٠٤

وعبوديتهم ، والغاء الحدود الالهية والاحكام الشرعية ، والفوضى والاضطراب فى الحياة ، والحرمان من النصرة الالهية والسعادة الدينية والدنيوية ، ومن أجل ذلك أولت الشريعة الاسلامية اقامة نظام الامارة والخلافة اهمية بالغة حتى جعلت الحياة بدونها حياة « جاهلية » وجعلت الموت فى هذا الوضع « ميتة جاهلية »، ولأمر ما عنى الصحابة رضى الله عنهم بأمر الخلافة واختيار خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمير للمسلمين يجمع شملهم ويتولى أمورهم ، على اثر وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وقدموه على كل أمر ، وفى سبيل الأخذ بها الى النهج الصحيح واعادتها الى سيرتها الأولى ، جاهد سيدنا على كرم الله وجهه جهاده الشاق الطويل ، وفى سبيل اعادتها الى نصابها قاتل حسين بن على حاكم المسلمين يزيد بن معاوية بن ابى سفيان ـ رضى الله عنهما ـ القتال الذى استشهد فيه ، وما زال فقهاء الاسلام وأولوا العزممن العلماء والمصلحين يرفعون راية الجهاد ويقودون الجيوش ، ويبذلون ما عندهم من نفس ونفيس ، فى سبيل الجهاد ، واقامة الحكم الاسلامى ، وقد تغافل عنه العالم الاسلامى فأصبح اليوم ذليلا مهانا لا قيمة له ولا رهبة ، وأصبح قصعة تداعت عليها الاكلة ـ من الحكومات والشعوب ـ .

لكن ذلك على عظم خطره وجلالة شانه لا يخرج من أن يكون

وسيلة عظيمة ، لغاية عظيمة يعرفه الذين درسوا تعاليم الكتاب والسنة دراسة دقيقة عميقة ، وامتازوا بالرسوخ فى العلم والاطلاع الواسع الدقيق على السيرة النبوية وعلى أخبار الصحابة ، وكان « ذوقهم العلمى » ومنهجهم الفكرى ، وأسلوبهم الدعوى كله منبثقا من صميم التعاليم النبوية ، ولم يكن صدى أو رد فعل لما كان يموج به عصرهم من حركات هدامة ، او دعوات مضللة ، او جاهلية عصرية .

ويجدر بى أن أنقل هنا ما قلته فى الترجمة الأردية لكتابنا « النبوة والانبياء فى ضوء القرآن » بمناسبة الحديث عن هذه الظلال التى تحدثها « ردود الفعل والتفاعل فى كتابات بعض الكتاب الاسلاميين المعاصرين » .

« ولك أن ترى ظلال ذلك التفاعل — ولا يمكن أن تراه فى بعض الأحيان بدون استخدام المكبرة — فى كتابات كثير من الكتاب والدعاة الاسلاميين المعاصرين ، فحينما لاحظوا من نجاح باهر مطرد للفلسفات الغربية والسيطرة السياسية الأوربية فى جانب ، وتدهور المسلمين وقلق المجتمع الانسانى واضطرابه أو وقوعه تحت حكم الاجانب فى بلاد فى جانب آخر ، أثار ذلك فيهم النخوة الاسلامية ، ونبض فيهم العرق القرشى

الاسلامى ، ولجأوا الى دراسة الاسلام من جديد ، والى تحدى هذا الوضع المزرى ، وبالتالى الى تقديم فلسفة اسلامية ونظام اسلامى للحياة مقابل تلك الفلسفات والنظم ، وقد غشيت هذه الظلال السلبية كتاباتهم وتعبيراتهم واساليب تفكيرهم ، يراها كل من اتيحت له فرصة دراسة الكتاب والسنة دراسة مباشرة مجردة عن التأثرات الخارجية والثقافات الأجنبية ، ويدرك مدى تأثير هذه الفلسفات والنظم الحديثة وسيطرتها القوية على هذه الكتابات ، والحركات والمنظمات ، والمدارس الفكرية الحديثة .

اما الأولون فقد تجلى حديثهم وكتاباتهم هذا الفرق بين «الغاية» و « الوسيلة » وتجلى لمن جالسهم أو عرفهم عن كثب أو تعمق فى قراءة ما صدر عن اقلامهم ، ان الرائد الذى يحدوهم والدافع الذى يدفعهم هو الايمان والاحتساب ، وان المقياس فى جميع المحاولات والجهاد فى سبيل الحصول على القوة والسلطة ، واقامة الخلافة والامارة ، انما هو ابتغاء رضا الله ، والرغبة فى الائتساء بأسوة النبوة ، والامتثال للأمر النبوى ، واعلاء كلمة الله ، وتطبيق اركان الاسلام ، واحياء العلوم الدينية ، واقامة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ليس غير .

وقد عرف حكيم الاسلام أحمد بن عبد الرحيم ولى الله الدهلوى « الخلافة » فى كتابه الفريد « ازالة الخفاء عن خلافة الخلفاء » بالكلمات الآتية :

« هى الرئاسة العامة فى التصدى لاقامة الدين ، باحياء العلوم الدينية ، واقامة أركان الاسلام ، والقيام بالجهاد وما يتعلق به — من ترتيب الجيوش ، والفرض للمقاتلة ، واعطائهم من الفيىء — والقيام بالقضاء ، واقامة الحدود ، ورفع المظالم ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، نيابة عن النبى صلى الله عليه وسلم»(١) .

ويقول من خلال تفسيره لهذه العبارة المذكورة أعلاه :

« فلو اردنا أن نعبر عن هاتى الشعب والشئون (التى تتضمنها الخلافة) وعن الجزئيات بالكليات ، وعن الكليات بكلى واحد يشمل كلها ويكون كجنس أعلى لهذه الأنواع والأجناس جميعها ، لقلنا : انها « اقامة الدين » فهى تتضمن جميع الكليات التى تدخل فى نطاقها جميع الجزئيات(٢) .

ويقول فى صراحة :

« ونصب الخليفة واجب بالكفاية على المسلمين الى يوم

---

(١) ازالة الخفاء عن خلافة الخلفاء ، ص ٢ طبعة اكاديمية سهيل — لاهور (باكستان) .

(٢) نفس المصدر .

القيامة »(١) .

ثم يقول بعد تقديم الدلائل الشرعية على ذلك :

ان الله تعالى جعل القيام بالجهاد ، والقضاء ، واحياء العلوم الدينية ، واقامة أركان الاسلام ، وذود الكفار عن حوزة الاسلام ، فرضا بالكفاية ، وهذه الأمور كلها لا يمكن أن تتحقق بدون نصب « الامام » ومقدمة الواجب واجبة(٢) (يعنى انه اذا كان هناك واجب لا يمكن أن يتحقق الا بعمل آخر ، فاذا يجب القيام بهذا العمـــل أيضـــا) .

وارى لزاما على أن أؤكد بهذه المناسبة أن كلمة «اقامة الدين» لا يجوز أن تجعل مترادفة لمجرد السعى وراء تأسيس « الحـكومة الالهية » انها أوسع وأجمع معنى ومفهوما مما يستخدم فى كتابات كثير من الكتاب الاســلاميين المعــاصرين ، فـ « اقامة الدين » تجمع بين جميع تلك الشعب التى أبانها حكيم الاســلام ولى الله فى كتابه ، ووردت هذه الكلمة فى موضع واحد من القرآن الكريم ، وذلك فى الآية ١٣ من سورة الشورى :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينـــا

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢
(٢) المصدر السابق

اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبى اليه من يشاء ، ويهدى اليه من ينيب »(١) .

وسياق الآية تدل دلالة مؤكدة على ان المراد به هو الدين بأجزائه وجميع تعاليمه ـ بما فيها العقائد والعبادات والمعاملات ـ وليس المراد هو مجرد الخلافة والحكومة ، والتمكن من السلطة والحاكمية ، يقول العلامة الآلوسى فى تفسيره الشهير « روح المعانى » عند تفسير قوله تعالى : « ان اقيموا الدين » :

« اى دين الاسلام الذى هو توحيد الله ، وطاعته ، والايمان بكتبه ورسله وبيوم الجزاء ، وسائر ما يكون العبد به مؤمنا ، والمراد باقامته تعديل اركانه ، وحفظه من ان يقع فيه زيغ ، والمواظبة عليه »(٢) .

وجاء بعد حكيم الاسلام الشيخ ولى الله الدهلوى ، حفيده النابغة العلامة محمد اسماعيل بن عبد الغنى بن ولى الله ، فوضع فى هذا الموضوع كتابا مستقلا باسم « منصب الامامة »(٣) وهو كتاب فريد من بعض النواحى فى المكتبة الاسلامية العالمية ،

---

(١) سورة الشورى : ١٣
(٢) « روح المعانى» ج ٧ ، ص ٥١٣ .
(٣) الكتاب بالفارسية .

وينقطع نظيره فى قوة استدلاله ، وعرضه ، واشاراته الدقيقة ولفتاته البارعة .

وقد عنى عناية فائقة بهذا الركن الاسلامى الأهم الامام السيد احمد بن عرفات الشهيد فىأوائل القرن الثالث عشر الهجرى، وقام بمحاولة الحصول على هذه السلطة ، وتهيئة الجو لذلك ، واتخاذ الوسائل والأسباب له ، محاولة منسقة منظمة على أوسع نطاق ، لا يقوم بها الا المؤمن الالمعى ، والقائد العصامى ، والامام الدينى الذى هيأه الله لهذا العمل العظيم ، ودعا الى ذلك دعوة قوية ، بحماس وعزيمة ، واخلاص وهمة ، لا نجد نظيره فى الماضى القريب ولا فيما بعده فى شبه القارة الهندية على اقل تقدير ، وقد صدق مترجمه الشهير الأستاذ غلام رسول مهر حينما قال فى كتابه « سيد أحمد شهيد »(١) :

« هذه صفحة من صفحات تاريخ ذلك العهد ، الذى يوصف بعهد انحطاط المسلمين فى تاريخ شبه القارة الهندية — الهند وباكستان — ولكن لا اخال أن هناك رجلا ينشد الحق فى مظانه ، ويدرك الصدق على حقيقته ، يتردد فى الاعتراف بأن عهدا من عهود

---

(١) كتاب موسع فى ترجمة الامام احمد الشهيد فى اربعة مجلدات ، مجموع صفحاتها ١٩٢١ (بالأردية)

المسلمين الزاهرة المتقدمة(١) لم يكن ازهر واليق بالانفجار ـ مبدئيا ـ من هذا العهد ، ولا يجوز الحكم على محاولة بالنتائج والمكاسب ، وانما المعول فى ذلك على عزم الجهاد وهمة العمل والثبات فى طريق الحق . وهل يمكن احدا ان يقدم من تاريخ عهودنا الراقية نماذج لهذه العزيمة والهمة والاستقامة التى لم يقصد صاحبها بها الا الدين والدين وحده»(٢) .

والى القراء الكرام مقتطفات من رسائله التى أرسلها الى أمراء المسلمين وملوكهم ، وكبار العلماء والمشايخ فى شبه القارة الهندية ، التى تدل على غايته المنشودة ، وعاطفته الحقيقية ، وعلى شعوره الرقيق الفياض ، الذى كان العامل الأساسى فى جده وجهاده ، ودعوته واجتهاده ، وعلى أن الغرض الذى كان يتوخاه من وراء محاولاته كلها ، انما هو الامتثال للأمر الالهى وتحقيق الأمر الربانى ، ونيل رضا الله ، وادالة الاسلام من الجاهلية ، والانتصار للاسلام ولاهله ، ورد اعتبار المسلمين ، واحياء ما مات من السنن ، وما اندرس من معالم الاسلام ، وما انطمس من شعائر الدين ، وانقاذ البلاد الاسلامية

---

(١) بعد القرون المشهود لها بالخير طبعا (المؤلف)

(٢) «سيد احمد شهيد» طبعة شركة شيخ غلام على وأولاده، لاهور باكستان

من الأيدى المغتصبة الخرقاء ، وعلى انه انما بعثه على هذه الخطوة الجريئة تجربته وايمانه بأن اقامة الدين منوطة بالسلطة ، وان تنفيذ الاحكام الشرعية رهين بالحكم والسلطان ، واذا فانه رهن اشارة مولاه وطوع أمره ، ليس غير ، يقول فى رسالة له الى رؤساء حدود الهند الشمالية وعلمائها :

« ان هذا الفقير — يعنى نفسه — ماض فى الطريق المرضى لدى مولاه بغاية من الطمأنينة والفرح والسرور ، وقد اعتمد على المواعيد الالهية(١) ، وجعل طاعة أمر الله موضع عنايته ونصب عينيه ، ونبذ ما سوى الله وراءه ظهريا ، وأطبق عينيه عما حوله »(٢) .

ويقول فى هذه الرسالة فى السطور الآتية :

« نحن عباد الله ، ومن أمة رسول الله ، وندعى اننا مسلمون ومن اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، لما رأينا أن القرآن ينطق بهذا المعنى (أى الجهاد) وآمنا بأن الرسول صادق ، اضطررنا أن نشد الأزر ونشمر عن ساق الجد لتحقيق أمر الله ، وان نركب

---

(١) يعنى مواعيد النصرة الالهية والرضا الالهى والأجر والثواب على هذا العمل ، التى جاء ذكرها فى الكتاب والسنة .

(٢) « سيرة سيد أحمد شهيد » (بالأردية) بقلم كاتب هذه السطور ، الجزء الأول ص ٣٨٦ .

متن السفر والهجرة ، اتباعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم(١).

ويفصح عن حوافزه وعواطفه الأصيلة فى رسالة الى الملك سليمان والى « شترال » ويصرح بأنه يبتغى علوا فى الأرض ولا فسادا ولا يشوبه غرض سياسى ، أو طموح شخصى وانما يرمى الى اجراء الأحكام الالهية واحياء السنن النبوية ، وان يأخذ الناس بأحكام الشريعة والسنة السنية فى باب الحكم والقضاء ، يقول :

« هذا الفقير لا يهمه جمع المال والثروة ، ولا يطمع فى الحكم والسلطة ، واذا كان هناك أحد من الاخوان المؤمنين يقوم باسترجاع البلاد من أيدى الكفار والمشركين ، ويعمل على اجراء أحكام رب العالمين ، ونشر سنة سيد المرسلين ، والعمل بقوانين الشريعة فى الحكم والقضاء،فان هذا الفقير قد نال غرضه، وأصاب رميته»(٢) .

وحينما يضغط على هذه الناحية يأخذ منه الحماس الايمانى كل مأخذ ، ويجيش اخلاصه ، وتتدفق قريحته ، وتنطلق غيرة عاطفته المؤمنة ، فيخط قلمه أمثال الكلمات الآتية الدافقة بالقوة ، يقول فى رسالة وجهها الى سلطان محمد خان وسيد محمد خان من

---

(١) نفس المصدر ، ص ٣٨٧ .
(٢) « سيرة سيد احمد شهيد » ص ٣٩١ .

ولاة « بشاور » ورؤسائها :

انى لا اقيم لتاج « فريدون » (١) وعرش « سكندر »

وزن شعيرة ، ولا احسب حسابا لملك كسرى وقيصر ، نعم ! اتمنى ان تكون احكام رب العالمين سارية المفعول فى معظم افراد بنى آدم ، بل فى جميع اقطار العالم ، دون قوة تعارضها او سلطة تمانعها ، سواء اتم ذلك بيدى او بيد غيرى»(٢) .

ودراسة رسائله وافكاره تدل دلالة واضحة على ان الباعث الاكبر الحقيقى على الجهاد والاجتهاد ، والنشاطات والممارسات ، التى كان يقوم بها ، هو شعوره الاسلامى بان جزءا كبيرا من الشريعة الاسلامية والقوانين الالهية ، سيبقى معطلا ملغى ، بل يعود غير ممكن التطبيق والاجراء ، اذا لم تكن حكومة تقف من ورائه، وتتولى تطبيقه وتنفيذه ، ويصير المسلمون اذا مغلوبى الأمر ، مسلوبى الارادة ، يصبحون قطيعا من غنم او لحما على وضم ، يشاهدون بأم اعينهم ان المساجد تهان وتهدم ، وشعائر الدين تمحى وتزالّ ، ولا يملكون من الامر شيئا .

يقول فى رسالته الى الرؤساء المشار اليهم :

---

(١) ملك كبير من ملوك ايران القديمة .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٩ .

To: www.al-mostafa.com

« ان الأحكام الدينية التى تتعلق بالحكومة تفلت من الايدى تماما ، اذا لم تكن حكومة ، وفساد امور المسلمين ، وما يقع من تعرض المسلمين لانواع الذل والاضطهاد والنكبة على يد الكفار المتمردين، ومن انتهاك للشعائر المقدسة، وهدم للمساجدالاسلامية، كل ذلك ظاهر مشاهد ملموس »(١) .

محاولات اقامة الدين مقرونة دائما بمراعاة الحكمة وفقه الدين :

لكن هذا الركن — اعنى محاولة تمكين الاسلام وجعله قوة حاكمة ، لها الأمر والنهى — من أركان « اقامة الدين » ليس كقالب حديدى لا نعومة فيه ولا مرونة ، ولا يمكنه أن يتوسع فى اى حال من الأحوال ، فالذين نثق باخلاصهم ، ورسوخهم فى العلم ، وتفقهم فى الدين ، وتشهد لهم بذلك صفحات ناصعة فى التاريخ ، ودلائل وشواهد لامعة فى صفحات الكون ، ونعلم انهم لم يكونوا من أهل « الرخصة » بل كانوا من رجال « العزيمة » فلا بد ان نعترف بأنهم لم يتخذوا من وسائل هذا العمل العظيم ومناهج تحقيقه ، الا ما كانوا يرونه منسجما مع الأوضاع التى كانوا يعيشونها ، ولم يألوا جهدا فيما كانوا يستطيعونه ، لأن المقصود هو النتيجة لا الوسيلة ، والبناء لا الهدم ، والايجاب

---

(١) نفس المصدر ، ص ٣٩١ .

لا السلب ، وكيف يسوغ لعاقل أن يقبول : ان هؤلاء المصلحين المجاهدين كان واجبا عليهم على كل حال أن يضعوا كل جهودهم فى هدم الأبنية ـ التى فسدت بعض اجزائها ، او اسىء استخدامها ـ ويستهلكوا فى ذلك امكانياتهم وفرصة عمرهم ، ولا يدعوها حتى يحولوها انقاضا ، سواءا وجدوا فرصة اعادة بنائها و لم يجدوها ، فان وقفوا من الحكومات الاسلامية المحكمة التى كان حكامها والمسؤولون عنها يتلفظون بكلمة الاسلام ويعملون بكثير من فرائضه وشعائره ، ويملكون وسائل وامكانيات لا يملكها غيرهم ، موقف الاصلاح والنصح ، والتفهيم والايضاح ، دون المعارضة الكلية ، واستخدموا مبدأ « الامالة » دون « الازالة » لا يجوز لنا أن نرميهم بالاهمال الكلى فى القيام بهذه الشعبة من شعب « اقامة الدين » وباقتراف « التعاون على الاثم والعدوان » .

وكذلك لا يجوز لنا ان نتهمهم بالتقصير فى آداء هذا الواجب ، لو ركزوا عنايتهم ، وما اوتوا من المواهب العلمية والخطابية والكتابية ، وما يتمتعون به من المؤهلات الروحانية والقوة الايمانية، على تحويل اتجاه المجتمع من الجاهلية الى الاسلام ، ومن دلغى عبادة النفس والمادة الى عبادة الله وحده ، ومن حرأن العصيان والاباء والطغيان ، الى الطاعة والانقياد ، حيث أن المجتمع الاسلامى الفاضل الأصيل هو التربة المعبدة الصلبة التى

تتحمل أثقل عبئه ، واضخم بناء ، وتقبل القيادة الصالحة ، وبجانب ذلك ظلوا على اتصال دائم بمركز القيادة والادارة ، وبلاط الحكومة ، وقدموا الى رجال الحكومة قوانين شرعية مدونة ، لكي يأخذوا بها في النظام المالي والقضائي والادارى ، وسخروا الحكام المعاصرين بقوة اخلاقهم وايمانهم وروحانيتهم واخلاصهم ونصحهم ، فمنعوهم احيانا كثيرة عن الخطوات التى تلحق الضرر بالاسلام والمسلمين ، واخضعوهم بهذه القوة الغلابة لاجراء القوانين الشرعية والحدود الالهية ، ووقفوا بهم فى وجه القوى المحاربة للاسلام ، فكانوا سببا مباشرا فى توسيع حدود الدولة الاسلامية ، والجهاد فى سبيل الله ، ووفروا للحكومة رجالا امناء اوفياء اكفاء ربوهم فى احضانهم اعواما طوالا ، وربما كانوا واسطة فى تحول زمام الحكومة والقيادة من الملحدين الى المتدينين من المحاربين للاسلام الى المحافظين على الاسلام ، من الملحين للدين الى الحامين للدين ، فلا بد أن نعترف لهم بالفضل ، ونعتبرهم حاملى لواء السعى فى سبيل اقامة الدين ، وجنود الاصلاح والاحياء والتجديد الأوفياء ، ولا يحق لنا أن نسقطهم من الحساب ، ونخرجهم من القائمة ، و نرميهم بالتقصير فى المسئولية ، بمجرد انهم لم ينجحوا فى تأسيس حكومة الهية مثالية .

والاستاذ المودودى نفسه يضغط بكل قوة على الاخذ بهذه

الحكمة ومراعاة الظروف والأوضـــاع ، واللياقة واللبـــاقة حين تتطلبها الظروف وتوجبها الملابسات ، ويعبـــر عنه بـــ « الحكمـــة العملية » يقول :

« الحكمة العملية » هي التي تفرض على الداعي أن ينظر ماهي الأسباب التي يجب أن تتخذ وسيلة الى التقدم الى الامام في الطريق المؤدي الى الغاية ، وما هي الفرص التي يجب انتهازها ، وما هي العوائق التي يجب ان تتركز العنـــاية على ازالتهـــا تواً ، وما هي المبادىء التي يجب أن تكون ذات مرونة ، وما هي المبادىء التي يجب أن يبحث فيها من جوانب المرونة التي تتطلبها المصالح الهامة »(١) .

ويقول في موضع آخر :

« والمراد منها (الحكمـــة العملية) بالايجاز : انه يجب أن نراعي في تنفيذ الاحكام الشرعية واقامة الدين ، تلك الأوضـــاع التي تواجهنا لدى العمل ، وان نغير فيما يتصل بالفتاوى والاسلوب العملي تغييرا تتحقق به المقاصد الشرعية في معنى الكلمة ، ولا تضيع هدرا من أجل تطبيق الاحكام والمبادىء على الأوضـــاع التي لا تقبلها »(٢) .

---

(١) « تفهيمات » (بالاردية) الجزء الثالث ، ص ٩١ ــ ٩٢ تحت عنوان « مراعاة المصلحة والضرورة في الاسلام . واصولها وقواعدها» توزيع المكتبة المركزية للجماعة الاسلامية دهلي ــ الهند

(٢) المصدر السابق ص ١٨٣ .

ويقـــول :

« كل من يريد أن يعمـل على اقامة الدين فعـلا ، ســواء أكان فردا ، او جماعة او دولة ، فطبعا يحتاج ـــ فى تحركاته ـــ الى أن يراعى الأوضـاع ، ويستخدم « التعقل العملى » ولا يمتنع فى هذه السبيل ـــ اذا الحت عليه الضرورة ـــ من أن يغير فى التدابـــير المسموح بها فحسب ، بل ربمـا يلجأ الى أن يستخدم لمثال تـلك الرخص التى منحتها الشريعة والتى لم يتحرج الأنبياء والصـحابة الكرام ايضـا من أن يستفيدوا منها »(١) .

فاذا ما نزلنا عند هذا المبدأ ، ووثقنا باخلاص هؤلاء الرجال وتفقههم فى الدين ، وكونهم من أهل العزيمة ، ذلك الذى تشهد به حياتهم التى عاشـوها ، فلا معـدى لنا عن ان نسـلم فى ضوء الشهادات التاريخية ، بأن الذين قاموا باستنباط المسائل وتوجيـه الأمة من الأئمة المجتهدين ، والذين قاموا بتدوين الأحاديث وتحقيقها وتنقيحها من المحدثين العظام ، والذين منحوا هـذه الأمة ثـروة واسعة من القانون المنظم للخراج والجزية من رجـال التشريـع والتقنين ، والذين تفادوا بالمجتمع الاسـلامى من المـادية الرعناء والانجراف مـع السـيل الجـارف من الغفلة ، ووفـرة الثروة والمال ، والرخاء الاقتصادى ، والرفاهية الآتيـة من توســـع

---

(١) المصدر السابق ١٨٩ .

الفتوحات ، والذين عصموه من عبـــادة النفس والهوى والســـلطة والحـــكم ، والخضوع للقوة والتهالك على المـــال والثـــروة ، والتهافت على المنصب والجاه ، وبيع الضمير والعقيدة ، والتضحية بالمبادىء والاصول فى سبيله ، والذين قاموا « بصنع » الرجـــال وتكوين السيرة والاخلاق فى مجتمع منهار مشرف على الزوال ، والذين ارصدوا رجالهم التى صنعوها فى جبهات خطرة حاسمة من رجال الاصلاح والتربية ، والذين حولوا ـــ فى صـــمت وهـــدوء ـــ امما محاربة للاسلام اذاقت المسلمين هزيمة نكراء ، واسرا ملوكية طاغية واصحاب سلطان ونفوذ متجبرين ، لا مسلمين مســـتسلمين فحسب ، بل محافظين على الاسلام ، وخـــدمة بارين له من اهـــل القـــلوب واليقين ، ورجال الحب والحنان ، والـــذين نفـــذوا فى قـــلوب الحكام المعاصرين بفضل ســـمو اخلاقهم وروحانيتهـــم ، واخلاصـــهم وزهدهم وعفافهم ، فاخضـــعوهم للعدل والانصاف ، ولتطبيق قوانين الاسلام واحكام الشريعـــة ، وللقضـــاء عـــلى البـــدع والمنكرات من العلماء الربانيين ، الذين آثروا هذا العمل على العزلة والخلوة والانقطاع الى الانشغال بذات الله وحـــده ، وربما خاطروا فى ذلك بأنفسهم ، والذين هيأوا الأذهان والقلوب من اجل احداث الانقلاب الصالح وتأسيس الحكومة الاســـلامية على اسس صحيحة ، وربوا لذلك رجالا تربية فكرية وعمليـــة ،

ووضعوا له أسسا علمية ، من اكابر رجال العلم والفكر ، هؤلاء كلهم — مهما اختلفوا فى المسالك والمذاهب ومهما غلب عليهم لقب خاص — كانوا من ذلك الركب العظيم ، السائر على هذا الدرب الكريم ، درب اقامة الدين ، فقد قاموا بهذه المسئولية فى عهدهم حسبما سمحت به الظروف الراهنة ، واقتضته المتطلبات المعاصرة ، والأوضاع التى كانت تلابسهم ، ولكن أحوال بعضهم فى أضواء تاريخية ساطعة ، وأحوال بعضهم وجهودهم وجهادهم ، وافكارهم وآرائهم ، لم تحوها كتب التاريخ التقليدية او السياسية الادارية ، بل انها توجد فى مجاميع رسائلهم ودواوين حوارهم واحاديثهم ، والكتب التى سجلت فيها كلماتهم ومواعظهم ، التى ربما لم تطبع بعد ، ان دراسة هذه المادة الفنية تدل على انه لم يخل عصر من عصور التاريخ الاسلامى ممن قاموا بهذه المحاولة حسب الوسائل والامكانيات المتاحة ، وظل العلماء الأعلام يؤدون واجبهم ، ويرضون ربهم ، ويطمئنون ضمائرهم ، وقد وفق عدد منهم أن يبلغوا بهذا العمل الى شاطىء النجاح ونقطة الغاية ، التى لا تزال بعيدة عنها بمسافات شاسعة ، تلك الجماعات والمؤسسات التى تعمل لهذ الغرض وتحمل لافتة العمل الاسلامى او لا تحملها فى شبه القارة الهندية ، او فى ارجاء الدول الاسلامية ، ولا يدرى أحد هل يكتب لها الوصول الى هذه النقطة أم لا ؟

اما السيد احمد الشهيد واصحابه الصادقون الاوفياء فقد بذلوا في هذا الطريق كل ما كانوا يملكونه من جهد جهيد ، ومن قدرة وقوة ، ولم يدخروا وسعا في تجربة اى وسيلة كانت مفيدة في هذه الغاية ، وقد صنعوا — فيانهاية المطاف — آخر ما كانوا يستطيعونه ، فبذلوا مهجهم وارواحهم في سبيل الله .

وكان الشاعر الاسلامي الدكتور محمد اقبال في ابياته الفارسية الغاية ، وقد صنعوا — في نهاية المطاف — آخر ما كانوا والوفاء :

« انهم ربما يعتمدون على الحجج والدلائل والبيان المعجز الاخاذ ، وربما يستخدمون السيوف والرماح في سبيل الحق ، واحيانا يرتدون الدرع تحت « الخرقة » ، وبالجملة ان العشاق خاضعون للاشارة ، فيصنعون ما يتفتح عليهم ، وينكشف لهم ، فاذا ما بلى هذا العالم وفقد غضاضته ، يبدونه كي يبرزوا من هذا الماء والطين عالما آخر يقوم على الايمان واليقين ، انهم قوم كل امرهم عجب في عجب ، فقد يشترون الخسارة بالربح ، ويبيعون كل متاعهم بنظرة واحدة » (١) .

---

(١) « زبورعجم » .

كلمـــــة لا بـــد منهـــا

هذه السطور التي تقدمت بها الى القراء الكرام في الصفحات الماضية ، والتي هي كـــ « دراسات مبدئية » فيما يتصل بالعرض الجديد للحقائق والمبادىء الاسلامية ، ربما يتضايق بها أولئك الذين لا يفرقون بين « الخـــلاف المبدئي » و « الخصـــومة الشخصية » ويرون في ادنى خلاف لوجهة نظر داعيـــة او عامل في مجـــال من المجالات الاســـلامية ، او قائـــد لحركة او دعوة (تفيـــد فائدة ما سياسية او اجتماعية او دينية) اضرارا بمصالح الاسلام ، وتشتيتا لشمل المسلمين ، واني لا انكر انه ربما استخدم الخلاف في الرأى والمؤاخذة ، وأســاليب الانكار والرد ، لتحقيق اغراض ســـياسية او حزبية ، ولكن الحقيقة ان هذا الخـــلاف في الرأى والنظـــر ، والافصاح عنه لم يكن طريق السلف والخلف فحسب ، بل كان في الوقت ذاته سببا كبيرا في حفظ الـــدين من التحريف الجـــزئي ، وعصمة الامة من الانحراف الكلي ..

أما الائمة المجتهدون فهم فوق أن اضرب بهم مثلا فى امثـــال هذه المناسبات ، لأنهم كانوا مجردين من كل شـــائبة من الانانية والاعجاب بالنفس ، والحقد والحســـد ، وفتنـــة « المعاصرة » بل الذين يعتبرون دونهم فى الزمان والمكانة ، والعـــلم والقبـــول والشـــهرة ، انهم كذلك لم يحتملوا هذا الخلاف فى الراى ووجهـــة النظر فحسب ، بل تلقوه بالتـــرحاب والسرور وطـــلاقة الوجه ، وشكروا لناقديهم ومخالفيهم ، على مؤاخذتهم ، وقد قبله اتباعهم وانصارهم أيضا بغاية من سماحة النفس وانشراح الصدر،وتناولوه بالامعان والدراسة فى جد واخلاص ، ولم يرموهم بالعداء الشخصى أو نيل الشهرة والجاه بهذا الطعن فى شهير أو كبير ، أو الاضرار بمصالح الاسلام ، وهناك أمثلة رائعـــة من نقد العلمـــاء للعلماء ، والعظماء للعظماء، يتشرف به المسلمون على مدار التاريخ، ويتجمل به تاريخ الفكر الاسلامى عبر القرون والأجيال ، ويبرهن به المؤرخ المنصف على شجاعة العلماء الأدبيـــة ، وانهم ما زالوا يؤدون الشهادة لله ، لا تأخـــذهم فى ذلك لومة لائم ، ويؤثرون مصـــلحة الدين على كل مصلحة .

ان الاخلاص الصادق ، وعاطفة نشدان الحق ، وحب صيانة الدين عن كل شائبة من التحريف ، واعلاء كلمة الله فى الأرض ، والايمان بأن كلا يؤخذ من قوله ويرد ، الا النبى المعصوم صلى الله

عليه وسلم ، كل ذلك سيجعل الانسان لا يتضايق بهذه الملاحظات والتنقيحات ، بل سيستقبلها بصدر رحب وقلب منشرح ، لما يراها تعينه على فهم الاسلام ، وتفهيمه وصيانته ، مما سيدل على ان الغرض هو اتباع الحق ورضا الله ، لا تضخيم الشخصية او تنميق الكلام ، أو تحبير الحديث .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

الفهـرس

الموضـــوع	الصفحة
الاهـــداء	١
المدخـــل الى الموضـــوع	٣
هل بقيت المصطلحات الأربعة القرآنية مجهولة مغمورة عبر قرون متطاولة ، وغابت عن الناس روح الاســلام الحقيقيــة ؟	٢٩
صـــلاحية الأمـــة للأخـــذ والتـلقى والفهـــم ، ومزية القـــرآن فى الانابة والوضوح والافاده	٣٣
الصلة بين الكلمات والمعـــانى	٣٤
المزايا الأســـاسية للقرآن	٣٦
الأمـــة المسلمة لم تقع فريســـة الجهـــالة المطبقة والضلالة الشاملة فى أى دور من أدوارها	٤٢
شـــهادة العقل السليم	٤٥
تحليل وتعليق بقلم العالم المصرى والمرشـــد العـــام «للاخوان المسلمون» الأستاذ حسن اسماعيل الهضيبى	٤٧
التصوير القائم للعالم الاســـلامى والتاريخ الاسلامى	٥١
تبشير الأحاديث الصحيحة باستمرار ظهور القـــائمين بالحق وبتواصل الجهود الرامية الى اعلاء الحق ورفع مناره عاليـــا	٥٨
اتصال محاولات الاصلاح والتجديد فى التاريخ الاسلامى	٦٠
الفعل النفسى لأسلوب التفكير السلبى	٦٢
الاقتصار على حاكمية « الاله » و « الرب »	٦٣
التصريحات المماثلة لدى سيد قطب	٦٨
تفنيد مقـــالة والرد عليها	٧٣

الموضـــــوع	الصفحة

هل الصلة بين العبد والرب هى صـــلة الحاكم والمحكوم بحسب ؟ ٧٧
مقتضى الأسماء والصفات والأفعال الالهية ٧٩
تعريف « العبـــودية » و « الاله » لدى شـــيخ الاســـلام ابن تيميـــة ٨١
الدعوة الى التوحيد واستئصال شأفة الشرك، كانا هدف بعثة الأنبياء وتعليمهم ودعوتهم الأساسى عبر التـــاريخ البشرى ٨٤
أسوة الأنبياء وطبيعة النبوة ٨٧
لاتزال « اللات » و « مناة » غضتين وفى طور شبابهما ٩٠
موضوع جهاد الأنبياء وجهودهم على مدار التاريخ البشرى ٩١
مكانة العبادات بعد التسليم بأن حقيقة الربوبية والألوهية هى الســـلطة والحاكمية ٩٤
اشادة القـــرآن بذكر الاكثـــار من أعمـــال العبـــادة ، وترغيبـــه فى ذلك ٩٩
الاعتقـــــاد بمجرد حاكمية الاله وسلطة الرب ، وتأثيره النفسى ١٠١
هل العبادات والأركان الأربعة الاسلامية ، هى مجرد وسائل ؟ ١٠٣
بيان القرآن الصريح وترتيبه الصحيح ١٠٤
شهادة أسوة الرسول والذوق النبوى ١٠٥
التأثير النفسى لاعتبار العبادات والأركان وســـائل . ١٠٧
أسطورة البطـــالة والاستسلام ١١١

الموضـــــوع	الصفحة

فيض من فيض ١١٣
اقلم تكن جهود الشهيدين وجهادهما
في سبيل « اقامة الدين » ؟ ١١٦
على راس كل حركة للجهـــاد
والتضحية شخصية روحية قوية ١٢٠
الامير عبد القـادر الجزائرى ١٢٣
شـيوخ الطريقة النقشبندية فى
سـاحة الجهـاد والاصلاح ١٢٤
السنوسية ، وجهادها الأكبر فى افريقيا . . . ١٢٦
السيد مهـدى السنوسى وعنـايته الفائقـة بالفتوة
والفروسـية ١٢٧
الشيخ حسن البنـاء ونصيب التربية الروحية
فى تكوينه ، وفى تكوين حركته الكبرى ١٣٠
علماء الهنـد وشيوخها فى ساحة الحرب
وميدان الاصـلاح والكفـاح ١٣١
التاريخ يحكم حكما حاسـما ١٣٤
واجب « اقامة الدين » فى ضوء الشريعة والتاريخ . ١٣٤
محاولات اقامـة الدين مقرونة دائما
بمراعاة الحكمة وفقـه الدين ١٤٧
كلمـة لابد منهـا ١٥٥
الفهـرس ١٥٨

رقم الايداع بدار الكتب : ١٩٨٠/٣٢٠٩

الترقيم الدولى ٩٧٧ ــ

مطبعــة المنصــورة ــ ٣٠ شـارع العطار ــ شبرا مصر ــ القاهرة

To: www.al-mostafa.com